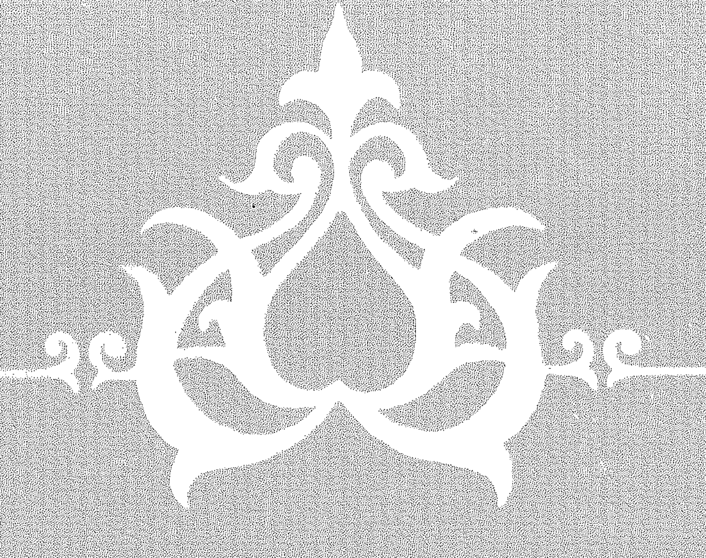
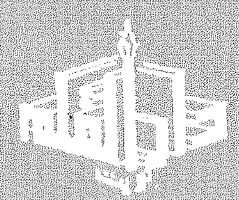


الجانب السياسي
في حياة الرسول
(صلى الله عليه وسلم)

تأليف
الدكتور أحمد حمد
كلية الشريعة - جامعة قطر

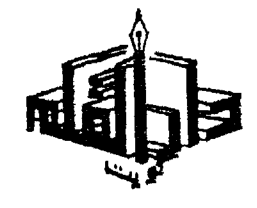


الجانب السياسى فى حياة الرسول

الجانب السياسي

في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)

تأليف
الدكتور أحمد حمد
كلية الشريعة - جامعة قطر



الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

دار القلم — الكويت — شارع السور — عمارة السور
ص.ب ٢٠١٤٦ — هاتف ٤٢٥١٦٠ — برقيا توزيعكو

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

كان بدء تدوين السيرة بعد عصر الخلفاء ، وكانت بداية كتباشير كل شيء في أوله فقد كانت عبارة عن روايات أو أخبار تسرد دون تبويب أو تنسيق .

وممن بدءوا في تدوين السيرة عروة بن الزبير بن العوام ، وقد ساعده نسبه من قبل أبيه وأمه أسماء بنت أبي بكر أن يعرف الكثير من أخبار النبي ﷺ وقد أخذ عن عروة الذين كتبوا في السيرة بعده ، مثل ابن إسحاق والواقدي والطبري . وكان منهم الذي عني بأخبار المغازي كشرحبيل بن سعد وابن شهاب الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ابن حزم .

وظل التأليف في السيرة على نهج الرواية والسرد إلى يومنا ، وإن اختلفت مناهج المؤلفين ، فمنهم من كان عمله مجرد شرح أو اختصار لمن سبقه كأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي الذي شرح سيرة ابن هشام ، وعز الدين ابن عمر الكناني الذي اختصر سيرة الحافظ علاء الدين مغلطاي .

ومنهم من حاول أن يأتي بجديد ولكن جديده لم يكن إلا تجميع نقول مأخوذة من مؤلفات من سبقوه كابن سيد الناس في مؤلفه المسمى « عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير » ، وعلي بن برهان الدين في مؤلفه « السيرة الحلبية » .

ومنهم من صاغ السيرة نظما كما صنع عبد العزيز بن أحمد المعروف بسعد الديري ومثله ابن الشهيد .

ومنهم من صاغ السيرة في قالب قصصي كما صنع طه حسين في مؤلفه « على هامش السيرة » .

ومنهم من وصل السيرة بما قبلها وما بعدها وجعلها حقبه من حقب التاريخ كابن جرير الطبري وابن كثير .

ومنهم من ركز على بعض الأحداث التي اتخذها بعض الطاعنين على الرسول ﷺ وفند طعونهم ورد على شبههم كما فعل الشيخ محمد عبده .

ومنهم من عنى عناية خاصة بمولد الرسول ﷺ وطفولته وما أحاط بهما من إرهاصات وخوارق ، وقد زخرت المكتبات بمثل هذا النوع من التأليف.

ومنهم من أفرد كل غزوة بمؤلف مستقل .

على كل حال لم تكن هناك مؤلفات عنيت عناية دقيقة بمقابلة الأخبار المروية عن الرسول ومقارنة بعضها ببعض للخروج برأى حاسم في قبولها كلها أو رفض بعضها ، وكذلك لم يكن هناك مؤلفات تعنى بتحليل الأحداث التي مرت في حياة رسول الله ﷺ وتعليل حدوثها وتصوير الظروف التي أحاطت بهذه الأحداث والخروج من كل ذلك بمبادىء عامة وقضايا كلية يمكن أن يقتدى بها في محيط الناس جيلا بعد جيل .

ونستطيع القول إن المكتبة الإسلامية وإن اكتظت بمؤلفات جمة في « السيرة السردية » إلا أنها ما زالت فقيرة من حيث المؤلفات التي تعنى « بالسيرة التحليلية » وإن كنا لا ننسى في هذا المجال الشيخ محمد الغزالي في مؤلفه فقه السيرة .

وهذا ما دفعنا إلى التفكير طويلا حول هذا الموضوع ثم المشاركة إيجابياً بجهد متواضع نرجو به رضوان الله ومثوبته .

وقد اخترنا موضوع (الجانب السياسي في حياة الرسول ﷺ) نبرز فيه منهجنا في « السيرة التحليلية » .

وسيرى القارىء أن سياسة الرسول (ﷺ) كانت من وحي فكره ثم ينزل وحي الله ليؤيده أو ليلومه على خطأ بدر منه ، على عكس الساسة الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله .

ولم نرد أن نتناول في هذا البحث التحليلي لسياسة الرسول ﷺ سياسته في المجال العسكري بإفاضة ، فان هذا يقتضي بحثاً مستقلا ، وإن كنا قد أشرنا إلى شذرات من هذه السياسة أثناء حديثنا عن سياسته على النطاق الدولي .

وبحثنا يتكون من مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة . أما المقدمة فنى تحديد معنى السياسة،ونبذة عن أشهر السياسين قديماً وحديثاً .

أما الأبواب الأربعة فكما يلى :

١ ـــ سياسة الرسول ﷺ فى محيط الأسرة .

٢ ـــ « « « فى نشر الدعوة .

٣ ـــ « « « فى تكوين الدولة .

٤ ـــ « « « على النطاق الدولى .

وأما الخاتمة فتشتمل على تحليل موجز لخطبة الوداع كدستور سياسى عالمى .

ونسأل الله توفيقاً يجنبنا الزلل ويعصمنا من الرياء في قول أو عمل .

مقـــــدمة

مفهوم السياسة :

السياسة معناها القيادة ، فساس بمعنى قاد[١] ، وهذه القيادة تتمثل فى كل مجال ، فقيادة طائفة أو فرقة أو جيش كبير أو أمة ، وقيادة الأمة فى شئونها السلمية وفى شئونها الحربية تعنى سياسة الأمر فى كل منها سياسة قد تهبط بها إلى أسفل سافلين وقد ترتفع بها إلى أعلى عليين .

وكلما اتسع مجال القيادة أو تنوع تتطلب ذلك من القائد مواهب فى السياسة تكافىء ما أسند إليه وتولى أمره .

وربما اختلط مفهوم السياسة بمفهوم (الديبلوماسية) ، ولذلك يجرى على ألسنة الكثيرين وصف الرجل بالديبلوماسى أو بالعكس ويقصدون بذلك أنه يجيد فن السياسة وأنه بارع فى ميدانها .

ولكن الدبلوماسية (La diplomatie) كلمة أجنبية وليست عربية، يقتصر معناها على تحسين العلاقة بين دولة ودولة ومعالجة المشكلات التى تنشأ بينهما أو الحيلولة دون وقوعها، وبعبارة أخرى هى المهارة وحسن التأنى فى الأمور[٢] .

وقد تكون السياسة بمعنى المكر والدهاء والختل والمراوغة ، بل هذا هو المعنى المتبادر الآن إلى الأذهان عندما يطلق لفظ السياسة ، ولعل تاريخ

---

(١) أنظر كلمة (ساس) فى القاموس المحيط للفيروز ابادى ، وفى المعجم الوسيط .

(٢) أنظر القاموس الفرنسى لاروس .

CF. Larousse, mot La dipgomatie

السياسيين أو شهرة بعضهم فى هذا المجال ثم تمجيد المؤرخين لهم وإضفاء شيء من القداسة على أعمالهم قد ألقى بظلاله على هـــذا اللفظ فقبع فى هذه الظلال .

وقد ترد السياسة بمعنى الحكم ، فكل حاكم أو كل من يريد الحكم أو كل من ينتمى إلى جماعة تتحدث فى شئون الحكم أو تنتقد تصرفات الحكام يعتبر سياسيا .

وقد جاء هذا من المعنى الأصلى للسياسة وهو القيادة ، فما الحكم إلا قيادة الناس وتصريف أمورهم ، وقد انسحب هـذا الوصف فى استعمال الناس على الحكام والذين يعارضونهم أو ينتقدون تصرفاتهم .

ولكن معنى الحكم أصلا هو القضاء[1] ، وقد يكون فى معنى القضاء الإلزام بالحكم عن طريق السلطة الشرعية أو عن طريق العرف ، ولذلك يطلق على القاضى لفظ الحاكم .

وقد أخذ مفهوم السياسة فى أذهان الناس كذلك معنى الحزبية والتحزب ، ولأن الهدف من ذلك هو الوصول إلى الحكم أطلق على كل جماعة تعمل من أجل هذا (حزب سياسى) أو (هيئة سياسية) .

كما أخذ كذلك معنى تنظيم العلاقات بين مجموعات قليلة أو كثيرة من الدول فالمنظمة العربية منظمة سياسية وهيئة الأمم منظمة سياسية .

والسياسة كما قلنا كلمة تعنى القيادة ، ولذلك يجب أن تفهم بهذا المعنى مجرداً عما سواه من المعانى التى اختلطت به أو ألقت بظلالها عليه ، فاذا ماقلنا (سياسة الإسلام) فانما نعنى حسن قيادته للناس فى كل مجال من مجالات الحياة لا فى الدنيا وحسب بل فى الدنيا والآخرة معا .

---

(١) أنظر كلمة (حكم) فى القاموس المحيط والمعجم الوسيط .

وإذا ما قلنا « سياسة الرسول » ﷺ فإنما نقصد حسن قيادته للمسلمين في الحرب والسلم ، في الحكم والقضاء ، في التوجيه والتنظيم ، في القيادة والإدارة، في الدين والدولة ، في كل ما يتصل بشئون البشر في معاشهم ومعادهم ، بل إنه النموذج المصطفى والأسوة الحسنة في هذا السبيل . .

وفي ضوء هذا نستطيع أن نحدد مفهوم السياسة عندما تنسب إلى الرسول ﷺ بأنها بذل الوسع فكراً وسلوكاً في تصريف أمور الناس لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فليس الجانب السياسي عند رسول الله ﷺ إلا هذا المعنى المشرق في عالم السياسة الحكيمة أي قيادة الناس باسم الله لتنفيذ شريعة الله حتى لا تزيغ بهم الأهواء ولا تلتبس عليهم السبل .

السياسيون قديماً وحديثاً :

ولتكتمل الصورة بوجهيها النظرى والواقعى للمعنى الذى قررنا ينبغى أن نعرض نماذج من الساسة قديماً وحديثاً .

ونختار لهذه النماذج هؤلاء الذين ذاعت شهرتهم ونقشت فى الأذهان ذكراهم واحتفى بهم التاريخ والمؤرخون .

ولعل أول من عرفهم التاريخ من هؤلاء الساسة هم ملوك الفراعنة وملوك بابل فإذا ما شاهدنا آثار الحضارة السابقة فى مصر وبابل من قديم الزمان فيجب ألا نغفل عن المظالم التى ارتكبت فى حق الإنسان فى هذه العصور السحيقة ، على الرغم من وجود بعض القوانين والشرائع ، فنى مصر كانت تعتبر الملوك أنفسها آلهة ، ومن هذه الفكرة تتولد فكرة أخرى وهي الحكم المطلق[1] الذى لا يراعى حدوداً ولا قيوداً ولا شرائع ولا قوانين ، فكم من ألوف تحت سوط السخرة أزهقت أرواحها فى سبيل بناء هرم خوفو أو خفرع أو منقرع ، ناهيك بالتزوير المتعمد الذى قام به تحتمس الثالث لينسب إلى نفسه آثار من سبقوه . وفى بابل التى كانت مدنيتها تضارع المدنية المصرية القديمة ، وكان أشهر ملوكها حمورابى الذى اقترن باسمه روح العدالة وهو القانون، إلا أنه يعتبر نفسه كغيره من ملوك بابل ممثلا للإله ونائباً عنه وحلقة الاتصال بينه وبين الشعب[2] ، وفى ظلال هذه الفكرة يصنع ما يشاء ويستولى على ما يشاء إذا شاء .

وعند الإغريق كان يعتبر ليكرجوس ملك إسبرطة نفسه شخصاً مقدساً[3]

---

(١) أنظر بريستد فى مؤلفه فجر الضمير (ص ١٠٤ — ١٠٥) .

(٢) أنظر قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الأول (ص١٨٧ ـ وما بعدها) .

(٣) أنظر قصة الحضارة ج ١ من المجلد الثانى (ص ١٤٨) .

يهبط الوحي عليه بالقوانين ، فهو يشرع وفق إرادته على أنه وحى من الله ، وقامت المذابح والحروب فى ظل هذا الوحى بين إسبرطة وطروادة .

وعند الرومان الذين اشتهروا بالتقنين والقوانين ، وكان أشهر من اقترن القانون باسمه منهم الامبراطور جستنيان ، كانت أيامهم تجأر من مظالمهم ، فإن النظام الرومانى يحول دون تجمع وطنى ، والذى يستحق شرف الحياة هم دون غيرهم ، حتى إن قرطجنة نفسها قد هدمت على من فيها(١) لثورتها على ظلمهم .

وفى أوربا فى العصر الحديث يقترن القانون باسم نابليون بونابرت وناهيك بما فعله هذا الطاغيه من مظالم يندى لها جبين الإنسانية فى كل مكان حل به ، كما إن هتلر ما زال اسمه يدوى فى الآذان ، ولكن مع أنات الضحايا والمنكوبين فى كل مكان(٢) .

وعلى الرغم من هذه البطولات التى أجبرت التاريخ على تسجيلها فى ذاكرته ، وعلى الرغم من هذه الأسماء التى مازالت ملء السمع والفكر ، فإن كثيراً من العيوب الصارخة والمظالم الفاضحة تضع غلالة داكنة على صفحات وجوههم بسبب جرائمهم فى حق الإنسانية .

وإذا وصل بالإنسانية الأمر إلى أن تصطلى بنار هؤلاء قديماً وحديثاً ، أما كان لها فى تاريخها من واحة فيحاء تتنسم فيها عبير الأمان ، وتخلد وقتا إلى الراحة والنعيم والاطمئنان ، وتتزود للمستقبل المجهول الذى لا تعرف أهو من نور أو نيران ؟ هذا ما نريد أن نعرفه فى سياسة الرسول ﷺ ، ولنبدأ بسياسته فى محيط أسرته .

---

(١) التاريخ الدبلوماسى لويس دوللو ، ترجمة د . سموحى . (ص ١١) .
(٢) أنظر تاريخ أوربا فى العصر الحديث ﻫ . أ . ل . فشر تعريب أحمد نجيب هاشم .

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم

في محيط الأسرة

فى المجتمع الصغير تبرز ملامح الشخصية التي تسوسه، وأسرة الرسول ﷺ كانت هذا المجتمع الصغير، ولكنه مجتمع له ميزته الخاصة به، وهذه الخصوصية تجعل سياسته أمرا صعبا وشاقا، فهو مجتمع تتجه اليه أنظار الناس ليتخذوه نموذجا يصوغون على منواله سلوكهم، ويحاكونه في طرائق حياتهم، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم.

القدوات والرفاهية :

وتمر على المجتمعات أحداث تكون أحيانا جساما فتعصف بما فيها من أسر وتزلزل أكرمها نسبا وأعلاها كعبا، وقد هب على مجتمع المدينة ريح الرفاهية بعد سلسلة من الغزوات جلبت ثروة كبيرة من الغنائم سال لها لعاب الأغنياء والفقراء على سواء، فقد تيقظت فى النفوس الأطماع، وقويت دوافع التمتع بالحياة الدنيا وزينتها، والتمتع بطيبات الحياة والدنيا وزينتها ليس عيبا فى ذاته، ولكن يلحقه لاعتبارات تأتى من خارجه، فإذا كان على حساب آخرين كان ظلما، وإذا كان ممن هو فى مقام القدوة والتأسى كان ضعفا وتخاذلا . .

وفي هذا الجو الذى أحس فيه جميع من فى المدينة تغيرا كبيرا من حيث الغنى والرفاهية خطر على بال زوجات النبي ﷺ شيء من الرغبة فى أن يتبدل حالهن إلى سعة بعد ضيق والى يسر بعد عسر، وسارت هذه الرغبة بينهن، واجتمعن فى هذا الرأى على رسول الله ﷺ.

ولكنه ﷺ يحس أنه فى مركز القدوة، وأن أية بادرة تؤخذ عليه

من حب الدنيا ستؤثر فى الحال على هذا المركز الذى يشد أنظار الناس إليه وسيهز من الأساس حب الناس له وتعلقهم به .

فكيف إذاً يسوس أمرهن بعد أن ظاهرن عليه واجتمعن لمعارضته ووقفن وقفة واحدة يطالبن بتنفيذ ما يرغبن فيه . . .

هل يحق أو يحقق لهن مايبغين ؟ وهذا أمر قد أباحه الله لكل مؤمن ليس فى مقام القدوة (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبادة والطيبات من الرزق .. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا)،أو يرفض هذا الطلب رفضاً حاسما ، فإنهن فى مقام القدوة التى تحتذى فى تغليب جانب الآخرة على جانب الدنيا «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة» ويجب أن تكون هناك قدوات تصنع التوازن والتعادل بين العواطف والرغبات وتذكر الناس بالله إذا ما ألحت عليهم عوامل النسيان « يانساء النبي لستن كأحد من النساء » ، لقد آثر الرسول ﷺ أن يرفض هذه الرغبة التى حرضتهن عليه ، وقرر عقابا لهن أن يعتزلهن شهرا كاملا (١) .

ومثل هذا التصرف قبل نزول الوحى يدل دلالة على الإحساس الصادق من رسول الله ﷺ بمكانته ومكانة زوجاته ، ومعالجة الأمر فى حكمة وكياسة حتى يجنب بيت النبوة الكثير من المزالق والخطوب .

أما كان يستطيع أن يلبى بعض الشيء رغبات هؤلاء الزوجات . وغالباً ما يكون لمرارة الشكوى ودموع البكاء أثر فى نهنهة الأزواج ودفعهم إلى محاولة إرضائهن وكسب ودهن ، ولاسيما إذا كانوا ذوى تبعات ثقيلة لاتبقى لهم وقتا للوقوف طويلا أمام رغبات الزوجات ؟ .

أما كان يستطيع أن يرسل بهن إلى بيوت آبائهن كى يتفرغ لشئون

---

(١) صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله .

كبيرة تنتظر منه التفكير المتواصل والعمل الدءوب ، فإن الدولة الوليدة يتهددها الأعداء من كل جانب وهي تخوض ومازالت تخوض حربا هنا وهناك .

ولكن تلبية الرغبات ولو بتنفيذ قليل منها ليست هي العلاج الأمثل ، فالنفوس إذا رغبت لا تقف في رغباتها عند حد ، وعلاجها الأمثل هو النظام مهما كان أمره صعبا وشاقا .

وإرسال الزوجات إلى بيوت آبائهن سيثير زوبعة من التساؤلات والتعليقات وربما تطاول المتسائلون والمعلقون على مقام رسول الله ﷺ وزوجاته معا . ولقد نزل الوحي بعد ذلك يخير الزوجات بين البقاء مع رسول الله ﷺ على الرغم من الضيق ، والانفصال عنه مع التمتع والزينة [1] ، إلا أنه الوحى الذى يقطع ألسنة المعلقين والمتسائلين .

أخطر تهمة فى أكرم بيت .

وتنتهى هذه المعركة الساخنة داخل بيت الرسول الله ﷺ ، لتبدأ حادثة أخرى تزلزل الأرض ، ويتلقفها المنافقون فى خبث ومكر يستهوون بها أصحاب العقول الصغيرة والنفوس المريضة والألسنة الحداد .

وينتشر أمر هذه الحادثة في كل مكان ، وقد وضعت عليها التوابل الحريفة لتسيء إساءة بالغة إلى رسول الله ﷺ وإلى أحب أهل بيته إليه .

إنها أخطر التهم وأكبر الفضائح ، وإذا كان مثل هذة التهمة أو هذه الفضيحة تقضى على مكانة أي شخص عادى فى نفوس الناس ، فما بالك بشخصية لها مكانتها التى لا تسامي ؟ وكلما كانت الفضائح فى بيوت كبيرة كان أثرها أكبر وأخطر ، فالنار التى على تل صغير ليست كالنار التي فوق جبل عال

---

١ ـ أنظر تفسير الآيات المتعلقة بهذة الحادثة فى سورة الأحزاب : تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير وابن الجوزى .

كبير ، فالراءون لنار التل لا يقاسون بالرائين لنار الجبل ! إنها فضيحة الإفك ، إنها التهمة التي ألصقت بالطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عندما تخلفت وكانت مع الرسول ﷺ بعد الرجوع من غزوة بني المصطلق واتهمت زورا بعلاقتها مع صفوان بن المعطل ، هذا المجاهد الأمين الذى كان مكلفا بتتبع آثار الجيش لالتقاط المتروك وإنقاذ العاجز أو المتخلف ، وكما يتطلب النظام الحربى أن يكون للجيش طلائع يتطلب كذلك أن يكون له توابع .

ودون الخوض فى تفاصيل هذة القصة [1] التى أصاب كل منها بطرف وشارك فيها برأى نريد أن نعرف كيف تصرف الرسول ﷺ .

إن الأدلة ليست كافية فى إلصاق التهمة ، إلا أن هناك فضيحة تلوكها الألسن هنا وهناك فلا أقل من الطلاق حفاظا على بيت النبوة أن يظل فيه مصدر هذة التهمة وسبب هذه الفضيحة .

إن التهمة ولو كانت مزورة إلا أنها قد أخذت أبعاداً من تفكير الناس وعمقا فى اهتمامهم، وأدنى مايوحى به التفكير البشرى المنفعل بهذه الفضيحة هو إجراء التحقيق على عجل لتبين الأمر وعقاب من يستحق ..

ثم فضيحة كهذه تشيع فى وقت تضغط فيه أحداث كبيرة على تفكير الرسول ﷺ وأحاسيسه تدفعه إلى أن يفعل شيئا أى شيء ليتخلص منها ويتفرغ لهذه الأحداث الكبيرة . إنها أحداث دولة ناشئة فى حالة حرب دائمة مع من حولها من أعدائها المتربصين بها ولكن كل مايتوقع وماتوحى به الظروف المحيطة بالحادثة لم يكن ، وكل مالم يتوقع ولم يدر بخلد بشر هو الذى كان ، فالرسول ﷺ عالج الأمر فى هذه الحادثة على النحو التالى :

---

١ ـ إرجع فى تفسير آيات الإفك إلى سورة النور فى المراجع السابقة .

١ ـ ترك الأمور تسير سيرها الطبيعي في بيته دون أدنى تغيير .

٢ ـ لم يحدث السيدة عائشة حول هذا الموضوع من قريب أو بعيد وكأن لم يحدث شيء .

٣ ـ لم يتخذ أى إجراء نحوها ما عدا استشارة بعض من يخالطونه أو يخالطونها في الأمر .

٤ ـ عندما علمت بما يشيع عنها الناس مرضت واستأذنت في الذهاب إلى بيت أبيها فأذن لها .

٥ ـ كان يتردد عليها في بيت أبيها للسؤال عنها والاطمئنان على صحتها.

٦ ـ تحدث معها عندما علمت حديث المذكر بالله لاحديث المقتنع بمافعلت.

لاشك أن الرسول ﷺ تغير بعض الشيء مما يشاع عن زوجه من فاحشة ، بيد أن معالجته للأمر على هذا النحو تدل على قمة الحكمة إذا ما تصورنا إضافه إلى الاعتبارات السابقة شدة حرارة البيئة وشدة حرارة العواطف في نفوس القاطنين بها ثم احتراف المنافقين في وضع فتائل التفجير ومواد الاشتعال ليفجروا الموقف ويزيدوه اشتعالا ، ولقد نزل الوحي أخيراً بتبرئة السيدة عائشة ، ولكن بعد فترة تجلت فيها حكمة السياسة وسياسة الحكمة لرسول الله ﷺ .

أمر الوحي والاجتهاد في طريقة تنفيذه :

وإذا كانت هذه سياسة الرسول الحكيمة قبل نزول الوحي عليه ، فهل كانت له سياسة بعد أن ينزل عليه الوحي .

إن حدثا آخر له أهميته وله خطورته سيتحقق قريباً ، وسيكون بطله رسول الله ﷺ وسيكون له وقع شديد على أسماع الناس ، وسيتلقفه

المنافقون من جديد لينالوا به من رسول الله أعظم نيل فإنها فرصة أخرى مواتية يستطيعون بها أن يؤلبوا الناس على رسول الله ﷺ . ولاسيما أن دوامة حادثة الإفك لم تنته إلا منذ قليل ..

لقد جاء الوحى إلى الرسول ﷺ بنبأ زواجه من زينب بنت جحش بعد طلاقها من ابنه المتبنى زيد بن حارثة ، ومثل هذا الزواج مستنكر بين العرب أجمعين ، فإن الزواج من زوج الابن المتبنى كالزواج من زوجة ابن الصلب سواء بسواء . . .

فماذا يصنع الرسول إذاً لينفذ أمر الوحى الذى لابد من تنفيذه ؟ أينفذه فى الحال أم يمهد لتنفيذه ؟ إنه ﷺ لم يحس أن في الوحى أمراً بالإسراع، وإلا كان عليه أن ينفذ فى الحال ، ولكنه أحس أن القصد وقوع الزواج وكفى .

ولعلم الرسول بما يجرى فى حياة الزوجين من شقاق وسوء تفاهم قرر أن ينتظر مدة يشيع فيها خبر هذا الشقاق ، ويظهر للناس أن الوفاق بين الزوجين عسير أو شبه مستحيل . ولكثرة شكوى الزواج إلى الرسول ﷺ أراد أن يظهر له وللناس أنه لايسعى لزيادة الجفوة وتعميق الفجوة بينهما لحاجة فى نفسه كما سيدعى المغرضون ، بل هدفه تحقيق الوئام بينهما ، ولذلك قال له : « أمسك عليه زوجك واتق الله » . وقد قدر الرسول ﷺ أنه لو قال له غير ذلك مما يوحى بالانفصال أو سكت عن إجابته ونصحه لساعد هذا الناس على أن يسلقوه بألسنة حداد ، وكأنه أراد أن يخفف بهذا وقع النبأ على أسماعهم .

فإخفاء النبأ [1] فترة من الزمن بعد الوحى ، ونصحه لزيد أن يمسك

---

(١) الأخفاء إنما هو للنبأ كما قلنا وليس هو إخفاء الحب كما يقول الكثيرون ممن تلقفوا هذا الموضوع للتعليق عليه ، وكان يكفى هؤلاء أن =

زوجه ويتقي الله ، سياسة رأى رسول الله ﷺ أن من الحكمة اتهاجها حتى تحين الفرصة المناسبة لتنفيذه كما أمر الله .

والحق أن النفس البشرية ربما يطغى فيها جانب على جانب ، ولاسيما إذا اهتمت اهتماما زائدا لأسباب ما بأحد الجوانب.

والرسول ﷺ وقد تعرض للوم من رب العزة فى هذا الموضوع ، لأن نسبة الاهتمام بتعليق الناس عليه قد زادت فى نفسه عن المستوى الذى يريده الله له : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

تقدير الغيرة وتهدئة ثائرة الزوجات :

ومع هذه الأحداث المتوالية أو بعدها بقليل[1] تجيء حادثة شرب المغافير[2] عند مارية القبطية ، وتقوم ثائرة بعض الزوجات لأنه ﷺ شرب المغافير ، وهذا دليل أنه كان عند مارية فى اعتقادهن.

إنها الغيرة التى تشعل النفس وتلهب الأحاسيس ، والوقوف أمامها يزيدها اشتعالا على اشتعال ولهيبا على لهيب ، وربما احترق البيت على من فيه من جرائها .

= يفهموا الاستعمالات اللغوية الجارية فى هذا المقام، فإن نسبة الإخفاء إلى النفس إنما يكون غالبا فى الأسرار والأنباء ولا تكون فى الحب والعواطف إلا قليلا، ثم ما معنى أن يبدى الله ما أخفاه من حب ؟ ! إن الأمر ليس أمر حب إنما هو أمر زواج لتقرير قاعدة شرعية ، ولكن الهزال النفسى عند الكثيرين يستتبع هزالا فكريا .

(١) لعل هذه الحادثة كانت فى السنة السابعة من الهجرة فإن الموضوع يتعلق بمارية وهى كانت من الهدايا التى أرسلها إليه المقوقس ملك مصر بعد أن جاءه كتاب الرسول ﷺ يدعوه إلى الاسلام ، وكانت كتب الرسول بعد صلح الحديبية فى أواخر السنة السادسة وأوائل السابعة

(٢) نوع من العسل .

وإطفاء الغيرة فى الحال هو السياسة الحكيمة فى مثل هذه المواقف، وقد كان هذا تصرف رسول الله ﷺ مع من ثرن عليه من زوجاته ، فقد حرم على نفسه شرب المغافير إرضاء لهن ، فإن رائحتها تنبهن إلى أنه كان عندها وتثير فيهن ثائرة الغيرة .

لاشك أن أية شخصية مهما رحب تفكيرها واتسع أفقها وطال صبرها وهدأت مشاعرها ، لاتستطيع أن تتصرف بحكمة وتسلك فى تعقل إذا كانت الأحداث عنيفة ومع عنفها متوالية لاتترك مجالا للراحة والتنفس والاستعداد لتقبل حدث جديد .

ولكن الرسول ﷺ على الرغم من عنف الأحداث التى مرت به وتوالت عليه أبى إلا أن يهدىء ثائرتهن ويطفىء غيرتهن ويعمل على إرضائهن .

وعلام كانت الثورة والغيرة ؟ كانت على شىء لا يستحق هذا كله ! على شرب المغافير وهو شىء مباح أحله الله .

وقد نزل القرآن معاقبا الرسول ﷺ أن يحرم على نفسه ما أحل الله له وهدد الزوجات أن يعاقبهن بنفسه إن هن عارضن الرسول وتظاهرن عليه بعد ذلك [1] .

وإذا تبين من هذا العرض كيف كانت سياسة الرسول ﷺ فى محيط أسرته ، فقد آن لنا أن نعرف كيف كانت سياسته فى نشر دعوته .

---

(١) راجع الآيات فى أول سورة التحريم .

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم

فى نشر الدعـــوة

تتطلب كل دعوة ولو كانت للباطل ونشر الفساد فى الأرض لونا من الفن فيجذب الناس إليها ، ومعرفة عميقة بواقع الذين سيبلغون بهذه الدعوة .

وكلما كان القوم الذين سيبلغون ذوى نفوس وعرة وقلوب قاسية وعواطف متبلدة ، كان على داعيتهم أن يكون أكثر عمقاً فى معرفة الطبائع وأعمق فهماً فى وسائل التأثير فيها وعليها .

فإذا كانت الدعوة هى دعوة الإسلام التى بلغت من سموها وجلالها أنها جامعة دعوات الحق وخاتمة الرسالات إلى الخلق ، وكان القوم الذين سيبلغون بها قوماً قست قلوبهم ووعرت مسالـكهم ودروبهم ، فإن سياسة نشرها بينهم تتطلب داعية له من الخصائص ما ينـــدر وجوده إلا فى القليل القليل من عظماء البشر .

ولقد كان الرسول ﷺ هذا الداعية ، فقد كانت استعداداته النفسية والقلبية والعقلية على مستوى التبعية الملقاة عليه .

ويتبين ذلك من سياسته وهو يمر بسلسلة من الحلقات منذ بدء الدعوة إلى مرحلة الهجرة فقد مر بمراحل عصيبة ، كل مرحلة لها خطورتها ولها ظروفها التى قد تختلف تماماً عن ظروف الأخرى .

وهذه المراحل هى : الدعوة الفردية — الإنذار — المقاطعة — الهجرة إلى الحبشة .

١ — الدعوة الفردية : —

واللقاء الفردى فى مبدأ الدعوة وعلى طول مسارها أمر تقتضيه السياسة الحكيمة،ولذلك بدأ ﷺ بالدعوة الفردية ، فآمنت به زوجه خديجة وابن عمه على وصديقه أبو بكر .

واستمر اللقاء الفردى طوال ثلاث سنين يضع اللبنات الأولى فى بناء الدعوة حتى أذن الله بإعلان الدعوة والجهر بها .

وقد كان من المنطق فى سياسة أمر الدعوة أن يبدأ باللقاء الفردى ، كما كان من الحكمة أن يبدأ الرسول ﷺ بأهل بيته ، فإن بيت الداعية هو مركز الانطلاق،ولابد أن يكون هذا المركز على استقرار ووفاق .

دار الأرقم : —

ليس من سياسة الحكيم ولا من حكمة الداعية أن يترك الأفراد الذين يدعوهم إلى الإسلام دون تنظيم يؤلف بينهم ولقاءات دورية تقوى روابط الود والأخوة فى نفوسهم ، وتصقل فى بوتقة الحق أرواحهم .

ثم إن هناك تعاليم تنزل عن طريق الوحى يجب تبليغها إليهم ، ومن العسير تبليغ كل فرد على حدة ، أضف إلى ذلك أن التجميع يشعر كل فرد أنه ليس وحده فى الميدان وأنه كثير بإخوته ويستطيع أن يثبت فى مكانه مهما كان المتربصون به أو المعادون له .

ولقد كانت فكرة بلغت الذروة فى النضج أن يعد مكان لتجميع هؤلاء الرجال الذين أثمرت فيهم الدعوة الفردية لربطهم رباطاً قوياً وتنمية ثقافتهم فى الدعوة الجديدة .

إنها القمة الفكرية فى سياسية الدعوة وتكوين لبناتها الأولى تكويناً قوياً يثبت أمام عوادى الزمن صلداً صلباً يقهرها ولا تقهره ، وينتصر عليها دون أن تنال منه .

فقد يكون من المنطق أن يلتقى أصحاب الفكرة الواحدة فى مكان يجمعهم ليتداولوا أمرهم ، و يقلبوا وجوه النظر فيما يعرض لهم من مشكلات ، ويحرض بعضهم بعضاً على الاستهانة بالصعوبات وعدم التخاذل أمام أية عقبة من العقبات .

ولكن هذه البيئة التي لم تكن تعرف قبل هذا النوع من اللقاءات الدورية تدفعنا إلى القول بأن هذا التفكير النبوى كان أمراً جديداً وعملا فريداً يدل على بلوغ الذروة فى النضج السياسى حيال الدعوة[1] .

فهل تصلح إذاً دار الرسول ﷺ أو دار أحد من الذين دخلوا الإسلام لهذا التنظيم أو لهذا التجميع ؟ ربما خطر ذلك فى ذهنه ﷺ ، بيد أن هذه دور خاصة ، فلابد من البحث عن دار لها صفة العمومية ، ولتكن دار الأرقم ابن أبى الأرقم ، وذلك للاعتبارات الآتية : —

١ — أنها دار اتسمت بطابع الخير ولقاءات الحق ، فإنها التى يعرف عنها الجميع أنها كانت المكان الذى عقد فيه رجالات العرب هذا الحلف المشهور الذى سموه حلف الفضول[2] .

٢ — إنها دار اكتسبت شيئاً من التقديس لقربها من الكعبة ، فقد كانت فوق جبل الصفا وكان لهذا القرب أثر فى نفوس العرب .

٣ — أنها لم تستغل من يوم أن وجدت ، بل لم يتهيأ لها أن تستغل لمن يريد بقريش شراً أو يبيت لها أمراً .

---

(١) قد يعرض للقارىء أمر دار الندوة حيث كان يجتمع قريش ، ولكنهم لم يكونوا يجتمعون على صورة منتظمة ، بل إذا طرأ ما يدعو إلى اجتماعهم ، كما أن الهدف من اجتماعهم كان مقصوراً على حل المشكلة الطارئة ثم ينفض .

(٢) سيرة ابن هشام / ج ١ (ص ٢٧٠) .

٤ — أن صاحبها قد عرف بين الجميع برجاحة عقله وعلو كعبه في تقدير الأمور ووزنها بميزان دقيق ، وهذا ما يدفع إلى اقتناع قريش أنه لا يقبل في داره اجتماعاً على باطل أو لقاء على عمل أثيم .

ولعل قريشاً إذا علمت بهذه اللقاءات ستخفف من عدائها ، وتكفكف من غلوائها ، لهذه الاعتبارات .

ولأن دعوة الإسلام دعوة إنسانية للإنسان أيا كان لونه أو جنسه ، لا بد من تطبيق ذلك سلوكياً من أول الأمر . فهل هناك من أسلوب عملي يبلور هذه الفكرة ويؤصلها في منطقهم ومنهج حياتهم بعد أن عصفت بهم العنصريات والقبليات ، إلا هذه اللقاءات في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي جمعت بين الغني والفقير والأبيض والأسود والعبد والسيد والكبير والصغير والعربي والعجمي ؟

ولا يستطيع المؤرخون أن ينسوا ما كان لهذه الدار من دور أساسي في إرساء الدعامات الأولى لصرح السلام فهي الجامعة الأولى التي خرجت أساطين الدعاة ، هي الدار التي تمرس فيها الرعيل الأول بأمراس الحكمة وتلقنوا الدروس العميقة في الصبر والمقاومة والثبات ، فقد خرجت أمثال عمار وصهيب وخباب وبلال[1] .

قال ابن اسحاق : « وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم كان النبي ﷺ مستخفياً من قريش بمكة يدعو الناس فيها إلى الإسلام في أول الإسلام حتى خرج عنها ، وكانت داره بمكة على الصفا ، فأسلم فيها جماعة كثيرة ، وهو صاحب حلف الفضول ، وكان الرسول ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلا مسلماً ، وكان آخرهم إسلاما عمر بن

---

(١) المرجع السابق .

الخطاب فلما تكاملوا أربعين رجلا خرجوا[١] .»

لقد كان التجمع فى دار الأرقم سياسة حكيمة تكشف عن عمق فى فهم الظروف المحيطة بأمر الدعوة ، وتدل على بصيرة نافذة تهدى صاحبها إلى رسم المنهج الحكيم فى سياستها .

٢ — الإنذار : —

من حقى أن أتصور استنتاجاً من أحداث العصر الذى نعيش فيه الآن أن رسول الله ﷺ كان يستطيع أن يقوم على رأس جماعة قوية مؤمنة من الذين آمنوا به وآزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، بثورة يقضى فيها على رءوس الشرك ويقبض على زمام الموقف ، ثم يعلن على قريش النبأ أو بيان الثورة الذى يوضح فيه أنه إنما جاءهم بخيرى الدنيا والآخرة وأن ما هم عليه من عقائد الوثنية وأخلاق الجاهلية تؤدى بهم إلى بؤس الدنيا وعذاب الآخرة .

وستسير الأمور بعد ذلك على ما يرام ، فسيعرف الجميع أنه إنما يقول حقاً وصدقاً وأن رءوس الشرك كانوا يقفون حجر عثرة فى سبيل الحق ، لا لأنهم يشكون فى أنه الحق ، بل لأن هذا الحق سيزحزحهم عن مكانهم الذى صعدوا إليه رغبة فى الاستغلال والقهر والاستعلاء والسيطرة «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا[٢] » .

ولكن التاريخ لم يحدثنا بشيء يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد . إنه مجرد احتمال يوحي به منطق الفكر المطاق فى أى عصر من العصور .

وسواء قبلنا أم لم نقبل هذا الاحتمال ، فإنه لم يكن على كل حال . وهنا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ (ص ٢٧٠) .

(٢) النمل ، آية : ١٤

نستطيع أن نعلل لعدم حدوثه بأن الرسول ﷺ لم يأت لغرض السيطرة على الناس أو جذبهم بالاستكراه إلى ما يدعو اليه « إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد »(١) « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(٢)« لست عليهم بمسيطر »(٣) « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون »(٤) .

وقد فهم الرسول ﷺ منهج دعوته من أول الأمر ، فلم يحاول أية محاولة يتزعم فيها انقلاباً أو يقوم فيها بثورة مع أنه صاحب الحق الصراح الذى لا لبس فيه ولا شك حوله — وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الثورات أو الانقلابات ليست هي السبيل الذى يدفع الإسلام أصحاب الحق للسير فيه(٥) .

فما هي سياسة الرسول ﷺ فى توجيه الإنذار إلى عشيرته بعد أن أمر به ؟ إن الإنذار هو الإعلام بالخطر ، وكلما كان الخطر أعظم كان الإعلام به أوجب وألزم ، وكانت السياسة فى توجيهه أرشد وأحكم .

إنه ﷺ يحس بغلظتهم وجلافتهم وصعوبة انصياعهم للإنذار وإحساسهم بالخطر ، فلابد أن يفكر فى المكان الذى يوجه منه الإنذار وفى الزمن الذى يناسبه وفى الصيغة التى يسوقه بها ، فالمكان له أثره ، والزمان له إيحاؤه ، والصيغة لها وقعها فى النفوس ، فليس كل مكان يصلح ، وليس كل زمن يناسب،وليست كل صيغة تقال .

---

(١) الرعد ، آية : ٧

(٢) الرعد ، آية : ٤٠

(٣) الغاشية ، آية : ٢٢

(٤) آل عمران ، آية : ١٢٨

(٥) فى كتاب لنا بعنوان · « إعلاء الغرائز دراسة نفسية فى ضوء الكتاب والسنة وربما يظهر قريباً .. عالجنا فيه أمر الثورات باستفاضة ..

أما المكان فقد كان قريباً من الكعبة ، فقد خرج رسول الله ﷺ حتى أتى الصفا فصعد عليه . وهنا يتوقع الناس أن الأمر جد خطير ، فإن اختيار هذا المكان بالذات يبعث موجات قوية من الإيحاء بجدية الأمر وخطورته .
أما الصيغة ، فإنه ﷺ عندما صعد على الصفا هتف بالجميع قائلا : (واصباحاه) وهذا يشعر أن الزمن كذلك كان له دخل كبير في عملية الإنذار ، فإن الناس في الصباح لم تشغل أذهانهم ولا عقولهم بعد مشكلات الحياة اليومية ، فهي على استعداد لتلقي الإنذار والانفعال به في الحال .

وهذه اللفظة (واصباحاه) تعني أنه صبح ليس ككل الصباحات التي مرت بحياتهم بل أنه صباح له وجه خاص يجدر بهم التفرس في قسماته وسماته ، فإذا اقترنت هذه اللفظة بصيحة فإن القلوب لابد أن تقفز من مكانها والجلاميد لابد أن تصيخ بآذانها .

ويأتي هذا التمثيل البارع ليفعل فعل الثورة ولكن دون ثورة ، وليثبت مكانة الداعية الموجه ولكن دون انقلاب يسفك الدماء ويطيح بالرءوس : « لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي . قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »[1] .

واختيار هذا الأسلوب الذي يدعوا إلى شدة الحذر وأخذ تمام الأهبة والاستعداد لدفع وقوع الخطر يستمد فعاليته وتأثيره من البيئة التي يعيش فيها المنذر والمنذرون ، فإن إغارة الجيوش تكون عادة كانطلاقة سهم في ليل بهيم .

ولأن الموقف لا يحتمل مزيداً من ضرب الأمثال ولا إكثاراً من المقال ، فقد أعلن عليهم في الحال وظيفته التي تفرض مكانته بينهم : إنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد .

ولا شك أن أصحاب النفوس المستقيمة التي تخلو من أمراض الهوى

---

(١) هذا الحديث من رواية مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس .

والكبر والغفلة كانوا كأجهزة الاستقبال المعدة لالتقاط هذه الكلمات الموحية من هذا الفم الصادق الذى لم ينطق كذباً قط والذى تهدى للأمر بعبقرية الخبير ، ونفذ الإنذار بإحكام وتدبير .

٣ — الهجرة إلى الحبشة :

بدأت رءوس الشرك أو وحوش الشرك تكشر عن أنيابها بعد أن أحست أن الأرض تميد من تحتها ، وأنهم إن عاجلا أو آجلا سيزالون عن أماكنهم أو سيلاقون حتفهم إن تركوا السبيل ممهداً أمام هذه الطغمة التى تهاجم فى قوة وثبات ما اعتنقوا من عقائد وما اعتادوا من رذائل وما روجوا من خرافات وأساطير .

لقد بدأ المسلمون يدعون إلى الله فى قوة ويعلنون عن دعوتهم فى جرأة ، وبدأ رءوس الشرك يتطاولون عليهم فى عنجهية وينكلون بهم فى وحشية .

القوة بين دعاة الحق ورءوس الشرك غير متكافئة ، فإذا ما أضفنا إلى عدم التكافؤ حيوانية هذه الوحوش التى لا تعرف معنى الإنسانية ، كان الموقف منذراً بمستقبل غائم بالنسبة لهذه الفئة المؤمنة .

أيترك الرسول ﷺ الأمر على ماهو عليه اعتماداً على أن هذه الفئة المؤمنة غالبة على كل حال وأن العاقبة لها آخر الأمر ؟ ليس هناك وحى بذلك ، وإذاً فليفكر فى الأمر ملياً .

والحق أن أمراً كهذا ليس من السهل تقويمه تقويماً يحيط بجميع أبعاده ، فإن لكل واحد ممن اعتنقوا الإسلام ظروفه الخاصة به ، ولا بد من دراسة هذه الظروف ، وإن البقاء فى الميدان أمر تمليه واجبات الدعوة إلى الله فى هذا المجتمع الذى توطنت فيه أمراض الشرك ، وإن النصح بترك الميدان فترة أمر تقتضيه الحكمة ، فمن للدعوة بعد أن يقضى وحوش الشرك على دعاتها ؟ ثم من الذى يبقى فى الميدان ومن الذى يترك هذا الميدان ؟ أيكون الأمر بالبقاء

أمراً عاما على الجميع تنفيذه ؟ أم يكون الأمر بالهجرة من هذا المكان أمراً عاماً على الجميع تنفيذه ؟

إن هناك فائدتين تتحققان دون شك من الهجرة :

أولا : توزيع جهود هؤلاء الذين ينكلون بالمسلمين فى وحشية ، حتى لا تتركز على الموجودين بمكة .

ثانيا : إلقاء ظلال من اليأس فى نفوسهم حتى يشعروا أن أعمال التنكيل لن تأتى بالمقصود من القضاء على الإسلام وأهله ، ففى الخارج عشرات من أبطال الإسلام الأوائل .

وهناك فائدتان أخريان قد تتحققان ، وهما :

أولا : امتداد الإسلام حيث بلغت هـذه الفئة المؤمنة ، فالمؤمن أينما حل يعتبر هالة من نور تشع بنورها على من حولها .

ثانياً : اكتساب حاكم بلاد الهجرة إلى صف الإسلام ، حتى يفت هـــذا فى عضد رءوس المشركين ويدفعهم إلى كفكفـة غلوائهم فى التنكيل بالمسلمين .

• • •

ثم اختيار مكان الهجرة الذى يتوجه إليه المسلمون أمر يحتاج إلى البحث والاستقصاء ، فكل بلد لها دينها وتقاليدها وحاكمها وشعبها ، ولها ظروفها السياسية الخاصة بها ، وهؤلاء المسلمون ليسوا على استعداد للذهاب إلى بلد يعادون فيها الدين والتقاليد ، أو يخضعون فيها لظلم الحاكم ومقت الشعب ، أو يكونون فى مهب الريح إذا ما كانت ذات ظروف سياسية متقلبة .

ويبدو هذا واضحاً من قول رسول الله ﷺ عندما أشار على المهاجرين بالتوجه إلى الحبشة : « إنها مكان آمن ، وهو مكان فيه ملك عادل يراعى حرمات الناس » .

وقال ابن إسحاق : قال الرسول ﷺ لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ،

فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »[1] .

لا أدرى كيف يكون الحال لو لم تكن هذه الدراسة العميقة التى تتطلبها الحكمة فى سياسة أمر الدعوة فى هذه المرحلة . نستطيع أن نتخيل ماسيحدث لو لم تكن هذه الدراسة ولكنه تخيل ذو أفق محدود ، أما الحقيقة التى لا مجال للشك فيها هى أن رسول الله ﷺ عالج الموقف فى هذه المرحلة علاج السياسى الحاذق الدارس لكل الأبعاد الخبير بأمر المقدمات والنتائج المقدر لكل خطوة يخطوها حسابها فى دقة وإحكام .

تربص لا تهرب :

وقد يقال : إن الهجرة إلى الحبشة كانت هربا من الميدان ، والشجاعة تقتضى الصمود إلى الموت أو النصر ، والعرب ينكرون هذا الخلق الضعيف الذى يدعو إلى تولى الأدبار والانسحاب من الميدان، فكيف يعتبر هذا التصرف الذى يكشف عن ضعف الإرادة سياسة بارعة وتصرفاً حكيما ؟

ونرد على هذا ببساطة فنقول : إن الهرب من الميدان إنما يعتبر ضعفاً وتخاذلا إذا توفر عاملان .

١ — أن تكون القوى متكافئة .

٢ — أن يكون الانسحاب إلى غير رجعة .

أما والقوى غير متكافئة ، والانسحاب كان للتربص ، فلا تعتبر الهجرة حينئذ ضعفاً ولا تخاذلا .

على أن المسلمين كانوا فى هـذا الوقت أفراداً محدودين ، لا شوكة لهم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ (ص ٣٤٤) .

ولا منعة ، مغلوبين على أمرهم أمام مجتمع جاهلي باطش لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا .

ثم إن هذا القول إنما يثار إذا كان الأمر يتعلق بميدان حرب ، ومع ذلك فلا عيب على من فر من ميدان الحرب متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، كما لا عيب على من انسحب من ميدان الحرب لعدم تكافؤ القوة .

أما في ميدان الدعوة فما العيب الذى يمكن أن يلصق بداعية يترك قوماً يتأبون إباء ظالما على من يريد لهم الخير والنجاة ؟

٤ — المقاطعة :

ومما يعطى الملامح لصورة ما كان سيحدث لولا الهجرة إلي الحبشة هذا الجرم الفظيع الذى ارتكبه كفار قريش فى حق الإنسانية كلها ممثلة فى هذه الفئة التي اعتنقت الإسلام ومن ينتمون إليهم من أقربائهم ممن بقوا على الشرك؟ فلقد استشاطوا غيظاً عندما رأوا أن الرسول ﷺ قد ساس الأمر سياسة جنبت المسلمين كثيراً من المخاطر التى تتوالى عليهم وهم تحت قبضة المشركين ، وقرروا فى غضبة الأحمق وثورة المجنون أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب فلا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم ولا يناكحونهم ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ، وكأنهم مرضى حكم عليهم بالعزل عن الأصحاء حتى يموتوا بمرضهم ويهلكوا بعلتهم دون علاج يوصف أو مساعدة تقدم .

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على

أنفسهم ، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ابن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه ... فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سراً ، مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش[1] .

كيف يكون التصرف الحكيم إذاً في مثل الحال ؟ كيف يسوس الرسول ﷺ الأمر في هذه المرحلة الحرجة بعد أن انحاز هو ومن معه من المؤمنين ومجموعة ممن بقيت على الشرك من عشيرته الأقربين إلى شعب أبي طالب ؟

لم تمر تجربة المقاطعة قبل ذلك . إنه قرار جائر صدر من أناس لا يفهمون للإنسانية معنى ولا يقيمون للقرابة وزناً . إنه الخواء الذي ملأ عليهم عقولهم وأفئدتهم ، صور لهم أن هـذا هو الحل الأمثل للقضاء على هذه الفئة ، حتى لو تعدى ذلك إلى أن يوافقونهم في باطلهم ويشاركونهم في كفرهم !

هل فاق هؤلاء إبليس في مقته للإنسانية وعداوته للبشرية ؟ لم يكن هدف إبليس في عداوته إلا إغواء الناس : « لأغوينهم أجمعين » ومع ذلك استدرك أن هناك طائفة لا يقدر على إغوائها : « إلا عبادك منهم المخلصين » . أما هؤلاء فقد أبوا إلا أن يجمعوا الكل في قرن واحد دون تمييز بين عدو وحبيب ولا بين بعيد وقريب ، وإلا أن تكون العداوة قضاء على حق الإنسانية في الحياة !

من الصعب إذاً أن يكون رد الفعل حكيما وعاقلا إلا من إنسان بلغ من الحنكة والحكمة القمة في سياسة الأمور . هل يقدم الرسول ﷺ عروضاً بالتفاوض مع المشركين لينقذ عشيرته من هلاك محقق ؟ هل يحاول أن يستجلب من الخارج قوة تعينه على التغلب على سدنة الكفر ، ولا سيما أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة استطاعوا أن يؤثروا بدعوتهم على النجاشي ؟

---

(1) سيرة ابن هشام ج ١ (ص ٣٧٥ - ٣٧٩) .

لا هذا ولا ذاك ، فان عرض المفاوضة تخاذل يطمع المشركين فيهم ويشعر بالانتصار فى مقاطعتهم ، كما أن استجلاب قوة من الخارج مخاطرة ليست مأمونة العاقبة وربما تضاعف الأمر وتفاقم الخطر .

وليس هناك تصرف أسلم ولاسياسة أحكم من الصبر والاحتمال إلى آخر مدى للأسباب الآتية : —

١ — فرصة مواتية لإسلام عدد كبير من بنى هاشم وبنى المطلب ، فقد اجتمع المسلمون والمشركون فى صعيد واحد،وقد وحدت آلامهم وآمالهم هذه الأزمة الخانقة التى يمرون بها .

٢ — دعاية سيئة ستنتشر عن قريش بين العرب ، حيث تبدأ العواطف تتجه نحو الفئة المظلومة المضطهدة ، وغالباً ما تحن النفوس إلى المضطهدين .

٣ — لن يسكت طويلا أولو النخوة من قريش فإن ما يتصفون به خاصة — والعرب عامة — من حمية وأنفة تأبى هذا الضيم الذى ألحق بفريق من ساداتهم ، وسيتقظون إلى ما وقعوا فيه من عار لا يغتفر ، وهذا ماتم فعلا على يد أبو البخترى بن هشام[١] . ثم جبير بن مطعم .

٤ — الصمود يعجز غالباً هؤلاء الغلاظ العناة أو يدفعهم إلى اليأس فى صد هذه الفئة المؤمنة عن سبيل الله .

وقد صدقت وقائع الأحداث بعد ذلك حكمة الرسول ﷺ وسياسته التى انتهجها فى هذه المرحلة .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ (ص ٣٧٩) .

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم

في إقامـــة الدولة

لقد انتشرت الدعـوة ، وكانت المراحـــل العصيبة التي مر بها الرسول ﷺ .

ومن معه كفيله بنشرها وانتشارها بين قبائل العرب ، أو بين كثير من هذه القبائل ، ولـكن انتشارها في حدود الجزيرة العربية وحدها لا يمثل عالميتها ، ولو استمر الأمر على هذه الحال لظلت الدعوة قائمة في هـــذه الحدود لا تتعداها . أما والرسول ﷺ حريص على أن تنتشر دعوته في كل أفق ، وأن تستمر حية في الأفكار إلى أن تقوم الساعة جيلا بعد جيل ، وما زالت قريش على عنجهيتها تأبى أن تتحمل مسئولية هذه الدعوة مع رسول الله ﷺ ، بل تقف صادة عن سبيل الله بـكل ما أوتيت من غلظة ووقاحة فلابد من التفـكير جدياً في الأمر .

لا بد لنجاح الدعوة المنشود واستمرارها الممدود وتحقيق عالميتها من دولة أو قوة منظمة أو مجموعة من الناس يربطهم رباط قوي أو قل قبيلة . فالقبيلة شـكل من أشـكال الدولة ، وإذا استطعنا أن نقول إن القبيلة أسرة كبيرة ، فنستطيع أن نقول أيضاً : إن الدولة قبيلة كبيرة .

١ — العرض على القبـائل :

وقد ألحت فـكرة إقامة الدولة على ذهن رسول الله ﷺ ، فقرر أن يعرض دعوته على القبائل ، لعل إحداها تقبل أن تـكون ردءاً لهذه الدعوة ومنطلقاً ثابتاً تنطلق منه إلى آفاق الأرض .

ولم يكن عرضه ﷺ بطريقة عشوائية ، بل كان بعد دراسة مستأنية وفاحصة لأمر كل قبيلة ومدى مؤهلاتها لتحمل ما يعرض عليها .

وبعد بحث ومقارنة بين القبائل رأى أن يذهب إلى ثقيف . وثقيف من أقوى القبائل وأعزها ، إنها فى نعمة ناعمة وقوة غالبة ، ولها فضل وسبق فى كثير من مفاخر العرب ومآثرها أفلا تقبل أن تضيف إلى مفاخرها ومآثرها مفخرة هي سيدة المفاخر ، ومنقبة هى أم المناقب ، لتتيه بها على العالم كله بما فيهم العرب أجمعون ؟ ألا تقبل أن تكون حاملة لواء الدعوة التي هى خاتمة دعوات الحق إلى الخلق ولا سيما أن قريشا التي وصلت إلى مكانة مرموقة بين العرب أجمعين قد تخلت عنها وأدارت ظهرها لها ورفضت أن تنال شرف حمايتها والدفاع عنها والانطلاق بها ؟

وعلى الرغم من أن الشقة بعيدة والطريق وعر والمخاطر كثيرة واحتمالات الرفض والرد غير الجميل قائمة فإنه ﷺ أبى أن يقف عندما توحى به الأفكار السلبية ، ومضى إلى ثقيف يحدوه العزم والرجاء .

قال ابن إسحاق : (فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا ماجاء به من الله عز وجل فخرج إليهم وحده) ، قال ابن اسحاق : (فحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمير ومسعود بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف فجلس إليهم الرسول ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم وهو يمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله

---

(١) ينزعه وكأنه يدعو على نفسه إن كان الرسول ﷺ صادقاً فيما يقول .

أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد (عليك) الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك . فقام الرسول ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف(١) .

ولم يكن رد ثقيف غير الجميل ليثنى الرسول ﷺ عن المضى قدماً لتحقيق فكرته وتنفيذ خطته ، فإنه كان قد قدر ماذا سيصنع إذا ما رفضت ثقيف .

لقد توسم فى قبائل أخرى مثل ماتوسم فى ثقيف ، ورأى أن السعى فى هذا السبيل هو المقدمة التى لابد منها للوصول إلى النتيجة المنشودة، ولو تكرر الرفض من هذه أو تلك فإن المقدمات السليمة تؤدى دائماً إلى نتائجها السليمة، وقد يتدخل عامل الزمن أحياناً بين هذه المقدمات والنتائج ، بل إن العامل النفسى له أهميته الكبيرة كذلك ، ولا يعلم دخائل النفوس إلا خالقها وحده .

المهم أن رسول الله ﷺ قد نظر نظرة فاحصة إلى ظروف كل قبيلة يختارها وإلى أولوية كل منها فى العرض عليها قبل الأخرى ، وإلى الأسلوب الذى يمكن أن يوجه إلى كل منها عند اللقاء بها وعرض الأمر عليها .

هذه بطن من بطون قبيلة بنى كلب قد صارت لقوتها وكثرة أفرادها وفضل زعمائها تعتبر أكبر القبائل وأشهرها ، وفوق ذلك يسمون باسم يختلفون به عن كثير من القبائل التى تسمى ببنى عبد الدار وبنى عبد اللات وبنى عبد العزى وبنى عبد مناة أنهم يسمون ببنى عبد الله، ولعل هذا هو المفتاح الذى يستطيع الرسول ﷺ أن يفتح به مغاليق نفوسهم .

---

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠ ، ٦١ .

قال ابن إسحاق : « وحدثني : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين أنه أتى كلبا في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله .

فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم : يا بنى عبد الله ، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم(١) .

وبعد هذه وما حدث من رفضها تأتى فى قائمة القبائل بنو حنيفة ، فإنها قبيلة لها وزنها بين قبائل العرب ، ومهما تكن نتائج المقابلة لا بد من الذهاب إليها وعرض الأمر عليها.قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك أن الرسول ﷺ أتى بنى حنيفة في منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم(٢)

وبعد هذا الرد القبيح ما زال فى قائمة القبائل التى يرى الرسول ﷺ أنها جديرة بهذا العرض بنو عامر ، فهل يتوقع منها مثل ما توقع من سبقها من ردود قبيحة ، ويثنيه تكرار الرفض عن متابعة السعى ، ويبدأ فى وضع سياسة أخرى غير سياسة العرض على القبائل ؟

قد تكون الردود المتكررة بالرفض سبباً في تكوين سحابة كثيفة قاتمة من اليأس ، ولكن الرسول ﷺ لم يكن على صورة هؤلاء الذين ملئوا الدنيا بشهرتهم الزائفة في مجال السياسة وهم لا يصدقون قولا ولا يحسنون صنعاً ، لم يكن مثل هؤلاء الذين اكتسبوا مجداً وجاها ، ولكنهم كانوا يخرون صرعى أمام التجارب المريرة التى تحمل ذيولها جرائيم اليأس الثقيل .

إن الأمل ما زال يتحرك قويا في نفسه ، وإن أبواب الرجاء ما زالت

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

مفتوحة على مصاريعها أمام عينيه ، وإن المبدأ الذى قرره بعد أن اقتنع به وتغلغل فى أعماقه هو إقامة دولة تكون ردءاً للدعوة وقوة لها ، فلا قيام للحق دون قوة تسانده وتؤيده ، وتقف دائما إلى جواره ، وتمهد السبيل لمسيرته وهيمنته .

لقد ذهب رسول الله ﷺ إلى بنى عامر ، وعلى الرغم من أن ردهم كان الرفض كمن سبقهم ، فإنه ﷺ ما زال مستمراً فى سعيه متحسساً فى حكمة وروية مواقع الخصوبة الفكرية بين القبائل العربية ، والبيئة الصالحة التى يمكن أن يقوى فيها نبات الدعوة ويشتد .

قال ابن إسحاق : فكان الرسول ﷺ على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم ، يدعو القبائل إلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف ، إلا قصد له ودعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده[1] .

إن كل ما مر ويمر من مشاق فى هذا السبيل ليس فى تقدير الرسول ﷺ إلا دوافع للاستمرار وحوافز للإصرار ، فكلما كان الهدف عظيما والغاية جليلة كانت المشاق بقدر ما فى الهدف من عظمة وما فى الغاية من جلال .

لا بد أن يتابع الرسول ﷺ المسير ويقهر كل عقبة ، فلا تقعد به هذه العقبات الكئود التى مر ويمر بها عن متابعة المسير ، باحثاً عن قبائل أخرى ، ولتكن هذه المرة بين القبائل الآتية من شمال الجزيرة العربية من ناحية يثرب .

بوادر نجاح أكيد لتفكير سديد :

إن الأوس والخزرج فى يثرب قبيلتان مشهورتان بالقوة والبأس بين قبائل العرب ، يضاف إلى ذلك أن عندها بعض المعارف عن دين اليهودية ،

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ .

فهناك جماعات أو قبائل يهودية مثل بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة تشاركهما الحياة فى يثرب ، بل بينهما وبين هذه القبائل اليهودية موالاة ومناصرة .

وكثيراً ما كان اليهود يفخرون عليها بأنهم ذوو علم وثقافة وتاريخ . ولعل نفسية الأوس والخزرج قد تهيأت على مر السنين ليكون لها مثل هذه الحظوة وهذا الشرف حتى يفخروا به على اليهود .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر عن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى. فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شىء ، قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله أنه النبي الذى يوعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[1] .

ثم إن الحروب الطاحنة التى أنهكت قواها وقضت على الكثير من أبطالها وما زالت تكشر عن أنيابها بين الحين والحين ، قد ملأت نفوسهم بالمرارة اللاذعة التى أيقظت عقولهم على واقع مر فبدت وكأنها تأمل فى وساطة خير تمد يدها لتنطفىء ما بينهم من حروب وتضع أوزارها ، أفلا يكون في نبي هذه الدعوة الجديدة بادرة الخير التى ستفتح صفحة جديدة لحياة مشرقة يعيش فيها الأوس والخزرج إخوانا متحابين بعد أن كانوا متنافرين ؟ « وقالوا

---

(١) المرجع السابق .

(أى هؤلاء النفر) : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك[1] .

إن عظم الحق وطول الصبر وإحكام الخطة وبراعة السياسة لا بد أن تفتت صخور الأزمات وتزيل عوائق التحديات ، وتهدهد من عنفوان الجبابرة وتطوع القلوب النافرة والنفوس الحرون .

لقد كانت أجهزة الاستقبال هذه المرة فى أكمل استعدادها وأقصى تهيؤها، عندما تحدث الرسول ﷺ إلى هؤلاء النفر من الأوس والخزرج وهم فى مضاربهم فى منى ، لقد تآلفت فى نفوسهم عوامل الاستجابة ، وتجمعت أسباب القبول ، فبدأت كلمات الرسول ﷺ ــ وقد حملت فى نبراتها الحية الواعية تجارب سنين مضت وأحداث تولت ــ تنساب فى قوة وثقة وصدق إلى قلوبهم وتعانق عواطف الخير فيهم .

قال ابن إسحاق : « ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وقد آمنوا وصدقوا »[2] .

قمة الحكمة :

مهما بلغ أى سياسى مستوى عالياً من الحكمة فان يبلغ مثل ما بلغ رسول الله ﷺ ، إن أى سياسى وهو يجاهد فى نصب وكبد لتحقيق الهدف الذى يسعى إليه،ما يكاد يلمس بوادر الأمل تلوح فى الأفق حتى يستخفه الفرح بالنصر ويبادر فى سرعة الظافر جريا وراء هذا الأمل ، إن أى سياسى فى مثل هذا الموقف الذى طال فيه الصبر وتكرر الرفض يجمع نفسه ويهيىء أمره

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٢ .

لمصاحبة هؤلاء النفر الذين استجابوا له وقبلوا دعوته ، وليس هذا من الحكمة ونفاذ البصيرة ، فربما رجعوا عن رأيهم بعد أن يرجعوا لقومهم .

ولكن سيد الساسة والقادة على الإطلاق أبى إلا أن يتريث فى الأمر ، ويستوثق منه ، ويجعل للزمن نصيباً فى إنضاجه . إن هؤلاء النفر الذين التقى بهم وآمنوا به ووثقوا فى صدق نبراته وعباراته وقبلوا ولاءه ونصرته سيرجعون إلى قومهم بما حملوا فى قلوبهم من نور . ولعل هذا النور يشيع فى أرجاء يثرب ويدخل كل بيت من بيوتها ويصل إلى كل إنسان فيها . ولعلهم جميعاً يطلبون المزيد من التعرف على هذا النبي الجديد ، وتكثر الهمهمات بين اليهود فى شأنه ، مما يدفع الكثيرين من الأوس والخزرج إلى الخروج إلى الحج فى الموسم القابل لمقابلة هذا النبي الذى سمعوا عنه والذى يتعطش من فى يثرب جميعاً لرؤياه والجلوس معه والحديث إليه .

« فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من الأنصار إلا وفيها ذكر من الرسول ﷺ[1] » .

إن الاستجابة التى بدت من هؤلاء النفر الكرام ، وتجاوب قومهم الذى كان صدى استجابتهم ، وخبرة يهود المدينة بأمر النبوة ، وشبح الحروب التى مزقت الأواصر بينهم ، ودهاء اليهود فى هذه الحروب ، ومستقبل المدينة وهى على هذه الحال عندما يوكل إليها أمر الإسلام ، كل هذا لا بد أن يثير لدى رسول الله ﷺ كثيراً من القضايا التى تحتاج إلى عمق فى التفكير والتقدير حتى يحسب لكل خطوة حسابها من زمن مناسب وقدر محدد .

بعد هذه الاستجابة وهذا التجاوب هل يذهب إلى المدينة ويكفى القوم مئونة الإتيان لمقابلته ؟ وكيف يذهب ؟ ومتى يذهب ؟ وهل ينتظر حتى يستوثق أكثر من القوم ؟ وهل يأمر المسلمين بأن يسبقوه إلى هناك ثم

---

(١) المرجع السابق .

يلحق بهم ؟ وما حجم المشكلات التى ستجابهه فى هذا المجتمع الجديد ؟ وماذا أعد لمجابهتها ؟ وماذا سيكون موقف قريش ، وهي الخصم اللدود الذى يرصد مصرعه ومصرع دعوته فى كل لحظة ؟ وماذا سيكون موقف قبائل العرب منه ومن قريش ؟ أتبقى على الحياد أم تنحاز إلى صف قريش ؟ .

والعبقرية الممتازة فى هـذا المجال هي التى تستطيع أن ترسم لنفسها منهجا سديداً يقوم على أساسه التصرف الأمثل ، التصرف الذى يعتبر النموذج المحتذى فى كل عمل سياسى من هذا القبيل .

منهج سياسى سديد :

إن رسول الله ﷺ قد علم من أخبار القوم أنهم عندما جاءهم نبأ الدين الجديد كانوا كمثل أرض قاحلة جدباء أصابها وابل ونزل عليها الغيث بعد قنوط فإذا هي مزارع خضراء وجنات فيحاء ، وأن عددا لا بأس به منهم سيأتى قريباً إلى موسم الحج .

لا شك أن قوماً كهؤلاء وقد أرهقتهم محن العداوة وأنهكتهم الحروب المروعة سيتسللون لواذا أو ينفرون نفور الطيور المذعورة إذا ما طاب منهم لأول وهلة أن يتعهدوا بحرب أو يلتزموا بقتال .

وإذاً فمن سداد الرأي أن يكون تعهدهم فى أول الأمر بالتزامات ليس فيها ذكر لحرب أو قتال ، ولذلك كانت العقبة الأولى أى بيعة العقبة الأولى معهم تسمى بيعة النساء[1] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦ ، قال ابن إسحاق: وذكر ابن شهاب الزهرى عن عائذ الله بن عبد الله الخولانى أبى إدريس أن عبادة بن الصامت حدثه أنه قال : بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا =

هذا من ناحية البيعة ، ولكن ماذا بعد البيعة ؟ أيتركهم يذهبون بعد الحج إلى المدينة ليقوموا دون مرشد بأداء الشعائر والالتزامات التى بايعوا عليها ؟ ربما وقع ما لا يحمد عقباه ، فهم ينتسبون إلى قبيلتين بينهما تاريخ طويل فى الحروب والمنازعات ، وما زالوا قريبي عهد بالإسلام ، فإذا ماتركوا دون قيادة واعية كان من المحتمل أن تنشأ فتنة حول من يكون القائد منهم ، ولا سيما أن من شعائر الإسلام ما يتطلب نوعاً من القيادة ، وهو الصلاة التى تتكرر كل يوم وتتكرر فى اليوم نفسه خمس مرات .

ولكن من يصلح لهذه القيادة الواعية ؟ من الشخص المناسب لهذه المهمة الخطيرة ؟ إن اختيار الأشخاص أمر ليس بالبساطة التى يتصورها الكثيرون ، فإن نجاح أى رئيس لأمة أو دعوة ، أو نجاح أية أمة ، يعتمد أساساً على اختيار الأشخاص ووضعهم فى أماكنهم اللائقة بأقدارهم وتكليفهم بالأعمال المناسبة لخصائصهم . وقائد أية أمة أو دعوة لن يفلح فى مجال السياسة إلا إذا تفرس جيداً من حوله من شخصيات ودرس دراسة فاحصة خصائصها ووضعها فى الموضع المناسب لها .

هل يصلح لهذه المهمة الخطيرة الصحابى الجليل مصعب بن عمير؟ إن دراسة مستفيضة تدور الآن حول شخصيته : دراسة من حيث مظهره من حيث شكله وهندامه وسمته ، دراسة من حيث سلوكه وفضائله وشرفه ، دراسة من حيث خصائصه ، من حيث صوته وأداؤه واستيعابه ، دراسة من حيث دعوته ، من حيث قوة التزامه وثبات وجدانه وصدق إيمانه ، دراسة كل شيء حول هذه الشخصية التى ستمثل الرسول ﷺ بين هؤلاء القوم والتى ستعطى صورة محببة له يتشوف لها الجميع ويتشوق قبل أن يهاجر إليهم ويكون بينهم .

= ولا نعصيه فى معروف ، فان وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر . . . » .

قال ابن إسحاق : فلما انصرف عنه القوم بعث الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة مصعب .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أنه كان يصلى بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض ، وقد كان مصعب من جلة الصحابة وفضلائهم ، هاجر إلى الحبشة فى أول من هاجر إليها . وكان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالا وتيها ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير »(١) .

ولننظر على مدار العام ماذا سيجد من أحداث ، هل سيسابق اليهود الأوس والخزرج إلى اعتناق دعوة الإسلام والتعهد بنصرة الرسول ؟ هل سيوفق مصعب بن عمير أن يجمع حوله من أشراف الأوس والخزرج ما يوسع به دائرة الدعوة ؟ هل ستبدو فى الأفق مطالع أحداث لم تكن متوقعة ؟

لقد كانت شخصية مصعب بن عمير شعاعاً من مشكاة النبوة أضاء المدينة وأوقد مشاعل الأفكار فيها ، وبدأ صراع نفسى بين اليهود الذين كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج بنبى قد أظل زمانه ، وهؤلاء الذين من طول ما لعقوا مرارة هذا الاستفتاح يريدون أن يسبقوا اليهود إلى هذا النبى المبشر به والذى تحققوا من صدقه .

هذا التفاعل فى الأفكار والتصارع فيها والتطلع إلى الحق والتسابق إليه قد دفع هؤلاء القوم إلى النظر فى الأمر نظرة جديدة وتقدير الموقف على

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ١٩٥ ، طه حسين ، على هامش السيرة ج ٣ ، ص ١٥١ — ١٥٣ .

أساس جديد ، لقد بدأت نفسياتهم بعد أن أنضجها عمق النظرة والفكرة تتأهب للقيام بعمل إيجابى حاسم يكافىء شرف الدعوة التى ينتسبون إليها .

إنهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم الآن أن بيعتهم للرسول لا يصح أن تقف عند حد (بيعة النساء) ، هذه البيعة التى تعنى بالحث على انتهاج الفضائل والبعد عن الرذائل ، بل يجب الإقدام على بيعة أخرى تترجم عن مدى عمق هذه الدعوة فى نفوسهم ومدى تقديرهم وحبهم لرسول الله ﷺ .

إن أمور الدعوات لا تقف عند الوعظ والتذكير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولو أن الدعاة وقفوا عند هذا الحد لأصبحت الدعوة كلاماً لا نظاماً وتملقاً لا تخلقا ، ولتحولت إلى محافل للتسابق فى إجادة فن القول لا ميادين للتسابق فى مجالدة جيوش الباطل .

لقد تهيأت نفوس هؤلاء القوم ليكونوا قوة ضاربة على يد الباطل لتمهد الطريق أمام دعوة الحق . ومن اليسير على السياسى الحاذق أن يعرف من لهجة من يحدثونه شيئاً مما يدور فى نفوسهم ، فما بالك بسيد من ساسوا الناس ؟ إنه ﷺ قد لمس هذا التحول النفسى فى شدة تحمسهم للحق وحرصهم على أن يكونوا أصحاب هذا الفضل الكبير مهما كان الثمن ، إنهم مستعدون الآن ليذودوا عن الرسول وعن دعوته كل ما يريد أن يناله بسوء ، وليقفوا جميعاً وراءه كالجبل الأشم والطود الشامخ يردون عنه سهام المعتدين وغدر الماكرين .

قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوساط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله» (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨١ .

أفلا تكون هذه الفرصة مواتية لبيعة جديدة تحمل هذه المعانى التى تدور الآن فى أذهانهم ؟ لكن طبائع النفوس تتطلب كثيراً من الحذر والحيطة وتقليب وجوه النظر وحسن التأتى للأمر ، ولماذا لا يستشير الرسول فى هذا الأمر من يخلص له المشورة ويبذل له النصح ويقدم له شيئاً من تجاربه ؟

لقد وقع اختيار الرسول ﷺ بعد أن تفرس حوله فى أقرب الأقربين إليه على شخصية لها وزنها ولها تجاربها وعلى درجة عالية فى صدق المشورة وعمق البصر بأمور القبائل . إن عمه العباس بن عبد المطلب رجل من قلائل الرجال الذين يشهد لهم التاريخ ويسجل بمداد من نور مواقف مشرفة ، وإن سلوكه مع ابن اخيه يكشف عن خصائص قل من يماثله فيها،وهو مع فكره الثاقب الذى أهله للسفارة بين قريش وغيرهم من قبائل العرب ، فيه عاطفة مشبوبة على ابن أخيه وتقدير عظيم له .

إن مشورة العباس على الرغم من أنه مازال على دين قومه مشورة الحكيم المخلص ، فلماذا لا يكون الوزير الأول الذى يخوض مع الرسول غمار الأحداث هذه المرة حتى يأخذ فى يده زمام الأمر ؟ .

لكن لماذا ركز الرسول نظره فى دائرة الأقارب الأقربين ولم تتسع هذه الدائره لتشمل غيرهم ممن اعتنقوا الدين وثبتوا عليه وأخلصوا له وفيهم من الخصائص ما يضارع فضائل العباس عم رسول الله ﷺ ؟

نستطيع أن نحلل هذا الموقف فنعرض الأسباب الآتية :

١ — إن بنى هاشم وبنى عبد المطلب يعتقدون أنهم مسئولون مسئولية كاملة عن محمد ، فقد تحملوا معه مسلمهم وكافرهم محنة المقاطعة ، وقد أبى أبو طالب وهو مازال على دين قومه ، أن يسلمه لهم ، ودافع عنه دفاع الأب الحنون عن ابنه البار حتى آخر نفس من حياته .

٢ — إن قرابة الدم كما توثق أواصر العواطف تقرب شوارد الخواطر ،

وغالباً ما يدل القريب قريبه على مواطن الخطر إذا كان عالى الهمة مكتمل الرجولة عظيم النفس كبير القلب رحب الأفق .

٣ — إن الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً كانوا لانتظارهم الطويل يمتزج فى نفوسهم بعد الأمل مع شدة الشوق لمخرج مما هم فيه ، فالتشاور معهم فى هذا الأمر ربما يؤدى إلى إفشاء سر يريد الرسول ﷺ أن يظل طى الـكتمان إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولقد أثبتت الأحداث براعة الاختيار ودقة التقدير ، وها هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ يخترق جبال منى فى ظلام الليل فى صحبة خير من حملت الأرض ، ذاهبا إلى مضارب القوم ليأخذ عليهم العهد لابن أخيه، وليحذرهم أن يهملوا فى شأنه أو يضعفوا فى نصرته ، وأنه مهما حدث فهو حريص كل الحرص على مستقبل هذا القرشى الكريم الذى ما زالت مكانته محفوظة بين قومه وكرامته عالية بين عشيرته .

قال ابن اسحاق : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج — وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها — إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز فى قومه ومنعة فى بلده ، وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك .

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده[1] .

---

(١) المرجع السابق ص: ٨٤ .

ولا شك أن كلمات العباس كانت كلمات قوية معبرة موحية تنبيء عن شجاعة هادرة وحكمة نادرة وإخلاص فذ ، فأثارت فيهم غيرة العروبة وحمية الحق ، فانطلقت ألسنتهم بالتأييد وامتدت أيديهم بالمبايعة على بذل كل نفس ونفيس فى سبيل دعوة الرسول ﷺ ونصرة دينه .

قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت.قال : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[1] ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر . قال : فاعترض القول — والبراء يكلم الرسول ﷺ — أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين القوم حبالا وإنا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع وتدعنا ؟ قال فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى،أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[2] .

* * *

تمت « بيعة الأبطال » ، إذا كان لنا الحق أن نطلق عليها ذلك كما أطلقوا على بيعة العقبة الأولى « بيعة النساء » ، ولم تقف سياسة الرسول عند تمام البيعة ، بل أراد أن يقوى فيهم رابطة التماسك ، ويبصرهم بعظيم المسئولية ، ويعلمهم كيف يعالجون أمورهم بنظام محكم ، ويرسم لهم صورة من مستقبل حياتهم عندما تصبح مدينتهم دولة تحمل أكرم دعوة .

---

(١) أى نساءنا ويكنى بالإزار عن المرأة ويكنى به عن النفس أيضاً .

(٢) المرجع السابق .

كيف يترك هذا الجمع المؤمن دون نظام محكم يربط عقده ، ويجمع شمله ؟ إن من حكمة السياسة ودقة التنظيم أن يختار منه نقباء له ، حتى يتعود هذا الجمع على النظام ولتتكون نواة الدولة الجديدة .

إن رسول الله يقدر أنه مقبل على أحداث عظام ، فلابد أن يفهم هذا الجمع المؤمن من الآن أن حسن الإدارة وإحكام النظام أمران هامان فى سياسة أمر الدعوة وإرساء أساس الدولة ، وأن أى أمر لا يمكن أن يتم هكذا عفو الخاطر ومحض الصدفة ، دون أن يهتز عوده ويحول إلى الأفول وجوده ، بل لابد من الحساب الدقيق لكل خطوة ،والتفكير العميق فى كل أمر قبل الشروع فيه .

هذا الجمع المؤمن يزيد الآن عن سبعين فرداً ، ولابد أن يتعلم كيف يتحمل مسئولية أعماله ، ويحسب من أول الأمر حساب خطواته ، وإذاً فأمر النقباء أمر لازم ومنطقى بالنسبة له ، ولا يمكن أن يتحولوا من أماكنهم ويرجعوا إلى أهليهم إلا بعد أن يتم اختيار هؤلاء النقباء .

ولكن كيف يختار هؤلاء النقباء ؟ أيختارهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ أم يختارونهم هم ؟ وهل يكون الاختيار على أساس السن أو الجاه أوالتجربة أو غير ذلك ؟

لقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الاختيار لهذا الجمع المؤمن ولم يتدخل فيه ، وهذه حكمة السياسة نظراً وتطبيقاً أرسى بها الرسول مبدأ هاماً فى سياسة الأمة ما زالت الدول الإسلامية إلى الآن تتخبط فى تحقيقه[1] .

قال كعب بن مالك : وقد قال رسول الله:أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا

---

(١) سنتناول هـــذا الأمر بالتفصيل عند الحديث عن نظام الحكم . .

ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[1] هذه السياسة النبويه الفذة قد أثلجت صدور القوم، فاختاروا النقباء من بينهم ، وتم الأمر دون نزاع أو اختلاف أو مشكلة ، وتقدموا إلى الرسول الله ليتلقوا توجيهاته لتكون لهم نبراسا يستضيئون به وهم يضطلعون بمسئولياتهم .

وقد كان التوجيه النبوى الكريم إشعار هؤلاء النقباء أنهم فى مركز المسئولية الكاملة وأنهم يضارعونه فى هذه المسئولية ، وأن الترابط القوى يجب أن يكون بينه وبينهم فى هذا التنظيم كما كان بين الحواريين وعيسى ابن مريم ، ولعلهم عرفوا من اليهود مدى الترابط القوى الذى كان بين عيسى عليه السلام وحواريه .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله قال للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي يعنى المسلمين قالوا : نعم » [1] .

المكان وأهميته :

الحق أن أية دولة لابد أن يكون المكان عنصرا هاما فى تكوينها ، ولا نستطيع أن نغفل هذه الأهمية في حديثنا حول سياسة الرسول ﷺ فى إقامة الدولة .

وينبغى أن نلقى أولا بهذه الأسئلة لنوضح هذا الجانب . ألا يمكن أن يفكر الرسول ﷺ فى ناحية ما من الجزيره العربية ، وما أوسع رقعتها ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

تكون مكانا آمنا يلتقي فيه مؤمنو مكة ومؤمنو المدينة، وتتكون الدولة بعيدا عن مؤامرات الأعداء وكيد المتربصين؟ أما كان الأولى بمكان الدولة مكة، فإن مكة لها ميزات متعددة، منها وجود الكعبة بها، ومنها أنها محصنة بالجبال العالية من حولها، ثم هي بلد حبيبة جدا إلى قلب رسول الله ﷺ، يترجم عن هذا الحب قوله، فيها: «والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وإنك لأحب بلاد الله إلى، ولولا أن قومك أخرجونى منك ماخرجت» فهل يمكن أن تنفثىء حدة قريش لتتهيأ مكة الحبيبة إلى رسول ﷺ مكانا لدولة الإسلام؟ أمن الخير أن تكون المدينة هي المكان المفضل لهذه الدولة على الرغم من المشكلات المعضلة هناك؟ فمشكلة اليهود، وقد بدا أمرها ماثلا للعيان، ومشكلة قلة التحصينات في أرض مكشوفة للأعداء، ومشكلة الوضع الاقتصادى الذى تتجمع معظم خيوطه فى أيدى غير أمينة على مستقبل هذا البلد.

هذه احتمالات ربما كانت تدور فى ذهن أكرم الساسة ﷺ، وربما كانت على أنصبة غير متساوية من الاهتمام، ولكنها احتمالات يفرضها منطق الأمور فى مثل هذه الحال، فإن الهجرة الأولى إلى الحبشة قد أكسبته دروسا لابد من وضعها فى الاعتبار، وقد اضطر المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة لأسباب خارجة عن إرادتهم أن يرجعوا إلى مكة وبقى القليل منهم على مضض إلى أن فتح باب الهجرة إلى المدينة فتحولوا جميعا إلى هناك، فهى تجربة مروا بها عرفوا منها أن المكان له أهميته، وأن التفكير فى الانتقال إلى جهة ما غير بلد المولد والنشأة يجب أن يأخذ مداه ليحيط بجوانب الموضوع وأبعاده ويتعمق ظروفه واحتمالاته.

ولعلنا نتساءل لم يترجح جانب مكة فى تفكير رسول الله ﷺ مع وجود المرجحات الكثيرة التى يمكن أن تفوق فى كثرتها الموانع التى يمكن أن تثور فى وجه هذه المرجحات؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نشير إلى الموانع ثم المرجحات. أما الموانع فهى:

١ ــ أن موقع مكة على الرغم من (استراتيجيته) موقع ضيق محصور

بين الجبال لا يسمح بالتكاثر السكاني إلا في حدود ضيقة .

٢ ـ أن رؤس الشرك من قريش يستطيعون بمكرهم ودهائهم ثم بعنفهم وشراستهم ـ فقد يؤلبون القبائل هنا وهناك على هذا الجمع المؤمن-أن يضعوا العراقيل أمام تقدم هذه الدعوة ويقضوا على هذه الفئة المؤمنة .

٣ أن هؤلاء الرءوس فى مكة قد كشروا عن أنيابهم ، وتكشفت عداوتهم الصريحة لهذا الدين ، ولم يعد هناك أمل-حتى لو حاول ذلك من جديد من يريدون أن يسيروا خطوات فى هذا السبيل-فى أن يعودوا إلى رشدهم ويكفكفوا من غلوائهم .

٤ ـ أن مؤمنى المدينة الذين يحلون فى مكة سيظلون فى حالة نفسية غير مستقرة ، حيث سيخامرهم شعور دائم أنهم فى غير وطنهم وسيلح عليهم الحنين والشوق إلى الرجوع إليه .

وأما المرجحات فهى :

١ ـ أن البيت الحرام بمكة هو أول بيت وضع مباركا للعالمين وهدى ومثابة للناس وأمنا ، ويقصده الجميع من كل صوب حدب ويا تية الناس من كل فج عميق . . .

٢ ـ أن هذا الحجيج وهؤلاء الناس الذين يأتون إلى مكة من كل مكان سيطلعون عن كثب على هذا الدين وعلى الذين اعتنقوه وعلى الذين ناوءه وسيعرفون الحقيقة باختلاطهم بهولاء وهؤلاء .

٣ أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد اختار هذا المكان من أول الأمر ، وأسكن فيه ذريته ، بل إن الله بوأه هذا المكان : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع والسجود » ، « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فإنك

غفور رحيم ، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » .

٤ — أن الجبال تحيط بمكة من جميع الجهات وهذا مايجعلها محصنة تحصيناً قويا ضد غارات الأعداء وتقيها غالباً من عاديات الطبيعة .

٥ — أن رءوس الشرك قد يراجعون أنفسهم ويغيرون موقفهم من هذا الدين الجديد ، وخاصة بعد أن يروا أن هذا الدين قد استجلب الكثيرين للحضور إلى مكة التي صارت عاصمة له ، فضلا عن الدعاية العريضة التي يكتسبونها بين الناس عامة وبين القبائل بوجه خاص .

والإجابة عن التساؤل حول وقوع الاختيار على المدينة مع المميزات الظاهرة لمكة ، نرى أن الرسول بعد المقارنة الفاحصة المتأنية ترجح عنده جانب المدينة لهذه الاعتبارات التي يمكن أن تخطر بالفكر في مثل هذه الحال :

١ — من الناحية الروحية تخلو من الأصنام الكثيرة والأوثان المنتشرة التي تطالع الناظر هنا وهناك في مكة ، ولا سيما في البيت الحرام وفي الكعبة نفسها[١] .

٢ — من الناحية التجارية ، هي على طريق القوافل بين مكة والشام ، وهذا ما يجعل لهـــا أهمية خاصة بالنسبة لمكة حيث تكثر قوافلها عن طريق المدينة .

٣ — من ناحية الموقع أو الناحية (الاستراتيجية) ، هي في منتصف الطريق للقاصدين بيت الله الحرام والآتين من المسجد الأقصى ، والقاصدين المسجد الأقصى آتين من البيت الحرام ، وهذا ما سيدعو هؤلاء وهؤلاء إلى التزود من حقائق هذا الدين الجديد .

---

(١) أبو الوليد الأزرقي ، أخبار مكة ج ١ ص ١٢٤ وما بعدها .

٤ — من الناحية السياسية ، ليست هناك مطامع لأحد فى الاستيلاء على المدينة ، ثم إن قبيلتى الأوس والخزرج اللتين كانتا تتنافسان على الزعامة السياسية فى المدينة قد دخلتا الإسلام .

٥ — من الناحية الثقافية ، يقيم فيها مجموعات كبيرة من اليهود ، وهم أهل كتاب ،وبمناقشتهم والحوار معهم يظهر كثير من الحقائق التى تخفى على كثير من الناس .

٦ — من الناحية الإنشائية ، سيستطيع الوافدون إليها أن يحدثوا فيها بنايات جديدة وينشئوا فيها حركة عمرانية ويتسع فيها دائرة الإسكان بتزايد عدد السكان وإقبال المهاجرين .

٧ — من الناحية الاقتصادية ، توجد زراعات كثيرة وهى غنية بالموارد المتعددة ، والدعوة فى رحلتها الحالية فى أمس الحاجة إلى موارد اقتصادية ، ولاسيما أن المهاجرين قد خلفوا وراءهم بمكة كل شىء من أموال وممتلكات.

٨ — من الناحية الطبيعية (المناخ) يعتبر مناخ المدينة من أكثر المناخات اعتدالا وأحسنها ، ، ولا يوجد فى الجزيرة العربية كلها مناخ يضارع مناخها وربما يوجد فى الجنوب أو الشمال مناخات مشابهة ، لكنها تحت قبضة فارس أو الروم[1] .

ومن المنطق بعد دراسة هذه الاعتبارات أن تكون المدينة هي المكان الذى يمكن أن يختار ليكون دولة الإسلام ومنطلق الدعوى ومأوى المؤمنين .

والحق يقال : إن مكة فى تاريخها الطويل لم تكن يوماً ما عاصمة لدولة وقد حدث بعد رسول الله ﷺ أن اتخذها عبد الله بن الزبير عاصمة

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموى والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

بخلافته ، إلا أن هذه الخلافة لم تمكث أكثر من اثنى عشر عاماً ، أي من ٦١ هـ إلى ٧٣ هـ[1] ثم لم يحاول أحد بعد ذلك أن يجعل من مكة عاصمة لدولة ، لا ندرى ألهذه الاعتبارات التى قدمنا أم لاعتبارات أخرى .

قلب الأمة الإسلامية :

وإنا لنأمل بعد أن أنفرط عقد المسلمين وتفرقت كلمتهم أن يستفيدوا من هذا الدرس الواعى الذى علمه للبشرية سيد البشرية ومعلمها ﷺ .

فلو أن البلاد الإسلامية هنا وهناك ، وبعبارة أدق : لو أن المهتمين بأمر الدعوة الإسلامية وجهوا أنظارهم وركزوا أفكارهم للبحث عن بلد يستحق أن يكون قلباً للعالم الإسلامى فيكون منطلق الدعوة الآمن[2] وبدأوا يحشدون جهودهم لتقويته ودعمه وتعميق أسس هذه التقوية وهذا الدعم — لاستطاعوا أن يلزموا العالم كله بالطواعية والانقياد لهم .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٣، تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٨، ٣٩ ، الدكتور محمد الطيب النجار ، الدولة الأموية فى الشرق ..

(٢) فى الواقع أن القرآن يوحى بمبدأ التجمع فى بلد آمن ، ويحث على البحث عن بيئة يتنفس المسلم فيها نسيم الحرية ، ويستطيع أن يؤدى عبادته وينشر دعوته ، كما ينهى عن العيش فى بيئة يسود فيها التسلط ويقوم الظلم والاستبداد :

« قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ،وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب » ، « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً .. ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما » .

وعلى العكس من ذلك لو ظل حال الدعاة كما هو الآن مفككا غير مترابط وأمرهم فرطا غير مجتمع،ولا يجدون بلدا آمنا يلم شتاتهم ويؤوى شاردهم، فسيظل عود الباطل قويا مستغلظا ودولته مستبدة ظالمة تلف يديها متى شاء لها الهوى حول عنق الحق لتزهق روحه ، وتقف له بالمرصاد تخضد شوكته وتشل قوته حتى لا تقوم له قائمة أو تنبعث منه حركة .

والعجيب أن الدعوات الأخرى التي تقوم على أساس من باطل صراح قد وعت هذا الدرس وأدركت أبعاده في واقع أمرها ، فانتهجت سياسة اختيار المكان الذي يكون قلبا لعالمها ومنطلقا آمنا لمبادئها ، واستطاعت أن تكون دولا قوية الأسر مرهوبة الجانب تساندها وتؤيدها ، وتعمل على انتشارها ، ويخرج الدعاة ، دعاة الباطل ، منها في أمن وثبات وثقة يكافحون كفاح المستميت للقضاء على الحق وأهله .

ولقد قامت في القديم والحديث مثل هذه الدول ، قامت لتؤيد وتنشر دعوات مغرقة في البطلان ، وتبعث الرعب في قلوب الذين يريدون بها نكالا أو يرجون لها زوالا .

٣ — إلى المدينة :

لقد استقر الرأى أن تكون المدينة هي المكان الذى تتكون فيه الدولة حامية الدعوة ، ويجب أن تتجمع من الآن عناصر الإيمـان ، ومهما كان الطريق شاقا فلابد من هذا التجمع .

إن المسافة بين مكة والمدينة ليست بالقصيرة ، فهى تبلغ ما يقرب من عشر مراحل أى خمسمائة كيلو متر ، ثم إن وعورة الطريق وندرة المـاء وكثرة الرصد ولاسيما من مشركى مكة ، كل هذا يدعوا الرسول ﷺ إلى أن يصدر توجيهاته الحكيمة إليهم ، ولا يتركهم يهاجرون كيفما اتفق :

قال ابن اسحاق : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى

الحرب[1] ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين — أمر رسول الله ﷺ من المهاجرين إليه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنون بها ، فخرجوا أرسالا[2] »[3] .

ولم يكن من الحكمة أن يسارع رسول الله ﷺ بالهجرة أولا ثم يلحق به المؤمنون ، فإن على القادة مراقبة الموقف واليقظة الدائمة لكل أمر يحدث فيه ومتابعة الأخبار التى تأتى من هنا ومن هناك ودراستها وإصدار القرارات والتوجيهات إن لزم الأمر .

وانتظر الرسول ﷺ إلى أن هاجرت جموع المسلمين ولحقت بالمدينة فى جوار إخوانهم الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، بل انتظر كذلك حتى يصدر له أمر باللحاق بهذه الجموع ، فالوقت المناسب لهجرته هو أن ينزل به خبر من السماء .

ولم ينزل الوحى هنا إلا فى تحديد الوقت المناسب للهجرة ، أما الهجرة نفسها ، هجرة الرسول ﷺ ؛ فقد كانت حدثا تاريخيا وعملا سياسيا وسلوكا بشريا يقف عظماء الساسة أمامه خاشعين ، ثم يقرون طائعين أنه قدوة جلائل الأحداث والأعمال فى هذا المجال .

خطة محكمة :

لقد وضع الرسول ﷺ خطة محكمة لهجرته لم ينس فيها أن يعنى بكل

---

(١) الإذن فى الحرب هنا مأخوذ من قوله تعالى فى سورة الحج : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » .

(٢) جماعة فى أثر جماعة .

(٣) المرجع السابق ص ١١ .

صغيرة وكبيرة قد تبدو له من بدء رحلته إلى منتهاها، ولعلنا نستطيع أن نوضح عناصر هذه الخطة عنصرا عنصرا فيما يلي :

١ — السرية التامة ، حتى لا تستطيع قريش أن تعترض طريقه إن علمت بأمره .

٢ — الخروج فى وقت يغلب فيه الهجوع حتى لا يتنبه أحد .

٣ — إعداد رواحل قوية وتعهدها خارج مكة ثم إحضارها عند الوقت المناسب .

٤ — بدء الرحلة من مكان آخر غير بيت رسول الله ﷺ .

٥ — التمويه على المتربصين بمن يضطجع مكانه على فراشه .

٦ — الإعفاء على آثار الأقدام عند السير .

٧ — التضليل إلى طريق معاكس (١) .

٨ — تعيين دليل خريت يعرف بدقة طرق الصحراء وشعاب الجبال ومنعرجات الطرق .

٩ — الأخذ فى الاعتبار الحصول على أنباء القوم أولا بأول وتعيين مراسل أمين بذلك .

١٠ — اختيار مأوى آمن يمكن الاختباء فيه فترة من الوقت إذا ما جد الطلب وراءهما .

١١ — اختيار من يحمل الزاد لهما مدة الاختباء فى وقت تغفو فيه عيون الرقباء .

١٢ — اصطحاب رفيق أمين يؤنس وحشة السفر ويعين ساعة الشدة فى

---

(١) توجه الرسول ﷺ فى طريق اليمن وهو طريق معاكس لطريق المدينة .

هذا الطريق الموحش الطويل . مثل هذه الخطة لا بد أن تدرس دراسة فاحصة بعناية فائقة ، فإن وضعها ثم تطبيقها بهذه الدقة ليست من الموضوعات التى تسرد سرداً دون اعتبار وتبصر أو تساق عرضا دون تأمل وتدبر .

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن رسول الله ﷺ كان قد اطلع قبل الهجرة بقليل على بعض آيات الله فى أرضه وسمائه تدل على قدرة الله المسيطرة على هذا الملكوت الرحب الفسيح ، وشاهد من مظاهر هذه القدرة فى رحلة الإسراء والمعراج ما ملأ عليه سمعه وبصره وحسه وفكره ، إنها عظمة القدرة فى كل شيء ، حيث استطاع أن يقطع الرحلة الأرضية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ثم الرحلة السماوية إلى عرش الله الأعلى فى وقت السحر ، مع أن الرحلة الأرضية وحدها تتطلب بالوسائل العادية شهوراً فى الذهاب والإياب.

أما كانت نفسه تتوق ولسانه يتحرك بعد أن رأى ما رأى بدعاء ربه أن ينعم عليه بوسائل مماثلة تجنبه وعثاء السفر ووعورة الطريق وكيد الأعداء وملاحقة المتربصين ؟ فهل فى رحلات التشريف تتهيأ الوسائل وفى رحلات التكليف لا تقدم أية وسيلة من الوسائل ؟

التكليف إذعان وجهاد :

لاشك أن الرسول ﷺ ـ وقد عرف من قبل وسائل القدرة الإلهية وتشبعت أحاسيسه بمقدار الأمان والراحة والسرعة فيها ـ لا يريد أن يترك لأحاسيسه وأفكاره المدى فى تصور هذا الأمر وهو مقبل على رحلة ستؤدى به فى آخر الأمر إلى أن يبدأ مرحلة جديدة يعد لها منذ زمن ليخوض فيها غمار أحداث يرتبط بها مصير هذا العالم كله .

إنه لابد أن يعلم أمته دروسا بالغة فى سياسة أمرها واستغلال قدراتها الطبيعية والعقلية للتغلب على مصاعب الحياة وشراسة الأعداء ، ولعله ﷺ كان يضع فى اعتباره مستقبل أمة ستجد فى طريقها من العقبات الكثير ، فلا تحدثها وساوس الدعة أن تتهاون أو تتخاذل مها كبر حجم المشكلات ومها صعب اجتياز العقبات .

إن الإذن بالهجرة أو الأمر بها تكليف، وليس بعد التكليف إلا الإذعان له والجهاد فى تنفيذه ما استطاع المكلف إلى ذلك سبيلا .

٤ — المجتمع الجديد :

لا نريد أن نقف عند هذه المقابلة التاريخية التى قابل بها أهل المدينة رسول الله ﷺ ، هذه المقابلة التى اشترك فيها المسلمون وغير المسلمين على سواء ، ولكننا نريد أن ننتقل مباشرة إلى الأحداث التى تمس الجانب السياسى عند رسول الله ﷺ فنعرض سجلها أمام الباحثين .

لقد كان أول عمل قام به صلى الله عليه وسلم عندما وصل إلى مشارف المدينة أن نظر إلى قباء نظرة خاصة ، فأراد أن يمكث بها بعض الوقت ويقيم فيها بعض المنشآت الهامة .

لقد أقام فى الحال مسجداً ، وابتدأ مباشرة الصلاة فيه ، وأصبح الأذان يجلجل فى أجوائها معلنا تكوين درع حصينة للبلد التى ستصير بعد أيام قلائل دولة أو عاصمة لدولة الإسلام .

إن إقامة مسجد لا يكون عملا عادياً إلا إذا أصبح أمراً مألوفاً ونظاماً معروفاً ، أما إذا كان أمراً لم يعهده الناس من قبل وعملا لم يألفوه ولم يعرفوه فهذا يكشف عن بصيرة ثاقبة ترتسم على صفحتها الصورة الصحيحة الصادقة لكل عمل سليم .

وتقدير أهمية موقع كقباء لا يستطيع إدراكه خبراء عاديون تقتصر خبرتهم على بعض المجالات ، فإن هناك اعتبارات شتى تتعلق بالنواحى الطبيعية والتجارية والدفاعية والهجومية ، وهذا يتطلب خبراء من نوع خاص يمتازون بإحاطتهم الشاملة ونظرتهم الجامعة .

قال ابن إسحاق : « فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف

يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده »[1] .

لقد رأى رسول الله ﷺ ببصيرته الثاقبة أن هـذه منطقة خالية تماماً من اليهود ومن أى تيار آخر قد يناوىء الإسلام ودعوته ، وإنها تمتاز كذلك بجو طبيعي لا يشوبه ما يزعج أو يكدر من تقلبات ، ثم هي ثغرة لها أهميتها بالنسبة للمدينة ، فلماذا لا تنال من الاعتبار بقدر مالها من هذه الأهمية ؟

إن موجة الفرح الغامرة التى استولت على الأنصار جميعاً عند لقائهم برسول الله ﷺ ، ثم انتظارهم بالمدينة ليصل إليهم بعد وصوله إلى قباء لم يشغله ﷺ عن الاهتمام بهذا الموقع الهام .

وقد كان من الممكن أن يؤجل تنفيذ أى شيء فى هذا الموقع إلى ما بعد الوصول إلى المدينة والاستقرار فيها ، ولكن الحكمة تقتضى عدم التأجيل للأسباب الآتية :

١ ــ أن الأحداث المقبلة سيكون لها من الخطورة والتعقيد ما يشغل الذهن والوقت .

٢ ــ ألا يتنبه أحد ما إلى هـذه الأهمية فيضع من أول الأمر العراقيل فى هذا السبيل ، ولقد تنبه فيما يبدو بعض المنافقين ، ولكن بعد فوات الأوان[2] .

مشكلات معضلات :

لكي نتصور أن مشكلات هذا المجتمع الجديد ليست كمشكلات أى مجتمع ، يجب أن نذكر الطوائف التى يتكون منها هذا المجتمع ، فقد كان يتكون من الطوائف الآتية :

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) انظر تفسير آية مسجد الضرار فى سورة التوبة .

١ ــ طائفة المشركين ، فلم يؤمن كل أفراد قبيلتي الأوس والخزرج ، وقد كان يوجد عدا الأوس والخزرج ثماني قبائل أخرى(١) .

٢ ــ قبائل اليهود الثلاثة التي تملك عصب الاقتصاد في المدينة والتي تشعر بأن لها وزناً خاصاً ووضعاً ممتازاً في كل مجال على غيرهم(٢) .

٣ ــ طائفة المنافقين الذين رأوا مد الإسلام تنداح رقعته أمامهم بالمدينة فآمنت به أفواههم ولم تؤمن به قلوبهم .

٤ ــ جماعة المهاجرين الذين تركوا كل أموالهم وممتلكاتهم بمكة ونزلوا على الأنصار بالمدينة .

٥ ــ جماعة الأنصار الذين بايعوا الرسول ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم .

ومجتمع كهذا يشعر المرء أمامه أنه مجتمع من نوع خاص ، حيث يضم طوائف يختلف بعضها عن بعض اختلافا قد يكون أحيانا كليا وجزريا ، وأي حاكم يتولى شئون هذا المجتمع سيشعر بشيء من الحيرة والتردد مهما بلغ من الحنكة والخبرة والبراعة في السياسة . وقد يعجز أن يحل واحدة من مشكلاته . ولو استطاع أن يحل واحدة لكان الحل قاصرا ، وتولد مكانها مشكلات أخريات أكثر تشابكا وتعقيدا .

والمجتمع الذي لا يربطه رباط قوي ، وتختلف فيه طوائفه هذا الاختلاف ، يسيل لعاب القوى الخارجية المتربصة به ، وتحاك المؤتمرات من خارجه ، وتكثر الاضطرابات في داخله ، لتضعف كيانه ثم تقوض أركانه وتهدم بنيانه .

---

(١) انظر مونتجومري وات ، تعريب شعبان بركات ، محمد في المدينة ص ١٢٢ .

(٢) الدكتور إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود ص ٩ .

وهنا تبرز عبقرية العلاج لمثل هذا المجتمعات التى لا يستطيع استقصاء مكامن الداء فيها إلا سيد الحاكمين وسيد السياسيين ، ومنهج سيد الحاكمين وسيد السياسيين . وهذا العلاج العبقرى من سيد الحاكمين وسيد السياسيين لا بد أن يكون بأسرع ما يمكن ، فكلما تأخر الدواء تفاقم الداء .

لا بد في أول الأمر من تصنيف هذه الطوائف ثم توحيد العلاج بعد ذلك للطوائف التى يمكن أن تلتقى أو يكون بينها تشابه أو تكامل .

ولقد ظهر التشابه أو التكامل واضحا بين الطائفتين الكريمتين : طائفة الأنصار وطائفة المهاجرين ، ولكن ما هو العلاج العبقرى للحفاظ على هذا التشابه أو التكامل أن يمسه سوء أو يعتريه ضعف ؟ أو ما هو النظام الذى يبقى الصلة بين هاتين الطائفتين قوية تتحدى عوادى الزمن أو وساوس الفتن ؟

إن العلاج العبقرى أو النظام المحكم لهاتين الطائفتين هو نظام الأخوة ، ولم يكن هذا النظام نظريا أو ارتجالياً كما يفهم الكثيرون معنى الأخوة الآن، بل كان نظاماً قانونياً مدروساً يتغلغل فى أعماق الحياة ويتكون على أساسه العلاقات القانونية بما تتطلب من حقوق وواجبات ، إنه نظام يتعانق تماماً مع نظام الأخوة فى الدم والنسب .

قال ابن إسحاق : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال — فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل — : «تآخوا فى الله أخوين أخوين ...» (٣) .

أما المجموعات الثلاث الأخر فلم يكن بينها من روابط بقدر ما كان

(١) على هامش السيرة ج ٤ ص ١٥٠ .
(٢) محمد عزت دروزه ، القرآن والمبشرون ص ١٢٢ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٠ .

بينها من فواصل ، فإنها وإن كانت تشترك جميعاً فى الكفر ، إلا أن إحداها تعلنه والأخرى تبطنه والثالثة كالثعلب الذى ينصب نفسه حكما بين ديكين متهارشين .

لكن أخطر هذه المجموعات الثلاث هي طائفة اليهود ، ولشدة خطورتها يجب اتخاذ موقف قانونى حازم ونظام تشريعى محكم يلزم كل جانب حده ، ويعرفه بواجبه وحقه ، ويضاعف، جزاءه إن أخل بواجبه أو نكث عهـــده .

والأفضل أن يوضع دستور شامل يجمع نظم العلاقات التى ستكون بين هذه الطوائف جميعاً ، ويحدد لكل طائفة واجبها ، ويفرض عليها القيام بمسئولياتها كاملة دون الإخلال بها أوالتهاون فيها ، ويشعر الجميع ـ بصياغته وشموله وتفصيل الأمر فيه ـ أن من وضعه حاكم لا يستهان بأمره بل هو سيد الحاكمين ، وسياسى لا يضارع فى فكرة بل هو سيد السياسيين .

لقد كانت مواد هذا الدستور الفاصل حاسمة ، فلم تستطع هذه المجموعات الثلاث إلا أن تنضبط بها انضباطاً كلياً ، فاستتب الأمن واستقر الأمر ، ودان الجميع علي الرغم من تناقضاتهم المعجزة ، وقد دفع ذلك بعض المبشرين الحاقدين أن يزعم : « أن انقلاباً شاملا طرأ علي النبي ودعوته بعد الهجرة إلى المدينة بسبب تدخل السياسة فى الدين ، حيث انقلب الداعية إلى رجل دولة وحرب ، وانقلبت طريقة الدعوة من الحكمة والموعظة الحسنة وترك من من لم يؤمن وشأنه إلى قتال المشركين حتى يؤمنوا والكتابيين حتى يخضعوا ويعطوا الجزية ، وتخلي عن الدعوة الكتابية إلى دعوة قومية بسلطان سياسى وحربى ، وإلى ملة وسط لا يهودية ولا نصرانية بل حنيفية إبراهيمية ، وصار يحمل على اليهودية والنصرانية واليهود والنصارى الذين كان منضما إليهم وكواحد منهم ، وكان الدين قد وحده معهم ففرقته السياسة عن بعضهم»[1] .

---

(١) محمد عزت دروزة ، القرآن والمبشرون ، ص ١٢٢ .

الدستور الأول للدولة الأولى :

لا شك أن الذى يتأمل في هذا الدستور وقد درس من قبل وضع يثرب وما فيها ومن فيها ليدرك تماما قوة هذا الدستور وعظمته وأثره العميق الذى تغلغل في النفوس فاجتث ما فيها من نوازع إلى الفوضى وميول إلى الفتنة ودفعها إلى النظام والانسجام في دولة لها نظامها الأساسى ولها دستورها الفاصل الذى يجب أن يرجع إليه الجميع .

ولأن هذا الدستور دستور له قيمته التاريخية والدستورية ينبغى أن نوضح ما يتضمن من قواعد ثابتة وأخرى مرتبطة بالظروف التى أملتها[١] ، مع حرصنا على أن نلحق هذا البحث بالنص الكامل لهذا الدستور ، ليدرس كل باحث دقة صياغته وترابط مواده وشمولها .

وسنترك المصطلحات الحديثة للدساتير ، كالمعيار الشكلى للدستور[٢] ، والمعيار الموضوعى[٣] ، والتعريفات التى أخذت جانبا من الناحية النظرية حول الدستور ، كالتعريف بأن القانون الدستورى هو مجموعة القواعد القانونية التى تنظم السلطة السياسية[٤] ، أو مجموعة القواعد القانونية التى تبين نظام الحكم فى الدولة[٥] أو هو قانون نظام الحكم فى الدولة[٦] .

---

(١) مازالت الدساتير غير مستقرة حول تحديد القواعد الثابتة والقواعد التى ترتبط بظروف مؤقتة .

(٢) بريلو ، موجز القانون الدستورى ص ٥ .

CF. Prelot, Pricis de droit constitutionnel P.5

(٣) لافيريير ، الموجز فى القانون الدستورى .

CF. Laferriere, Manuel de droit constitutiounel, P. 268

(٤) CF.Vedel,Manuel élémentaire de droit constitutionnel.P.5.

(٥) « محمد خليل » النظم السياسية ص ٨ .

(٦) د . عبد الفتاح حسن ، مبادىء النظام الدستورى ص ٢٥ .

ونتناول الآن موضوع القواعد الثابتة والقواعد التى تمليها الظروف عند وضع أى دستور :

أولا : القواعد الثابتة :

١ ـ النص على عناصر الدولة من أمة ومشرع وحاكم وشريعة ، وقد أبرزت هذه العناصر أول صيغة فى الدستور : « هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس .. وهذه الصيغة : وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ . وهذه الصيغة : « وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ » .

٢ ـ النص على تحقيق العدالة بين الأمة ، وقد تكرر النص عليها فى هذا الدستور بهذه العبارة : « بالمعروف والقسط بين المؤمنين » .

٣ ـ النص علي مصدر التشريع ، وقد تكرر النص على ذلك فى الدستور بهذه العبارة : « وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره » .

٤ ـ أن من واجب الأمة المراقبة الكاملة لتنفيذ شريعة الله وعدم الإخلال بأحكامها ، وقد نصت العبارة الآتية علي هذا الواجب الدستورى : « وأن المؤمنين المتقين علي من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (جرم) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم » .

ثانياً : القواعد التى أملتها ظروف خاصة :

١ ـ النص على بقاء النظام القبلى فيما يختص بالعاقلة وفداء الأسرى : « المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالهم التي كانوا عليه قبل الإسلام) يتعاقلون معاقلهم (دياتهم) الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها (أسيرها) بالمعروف

والقسط بين المؤمنين ، و بنو عوف على ربعتهم ... و بنو ساعدة على ربعتهم ... وبنو الحارث على ربعتهم ... » .

٢ ـ النص على أن الذميين يكلفون بالنفقات الحربية إذا ما دخلوا حرب الكفار مع المسلمين : « وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين » ، « وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » .

٣ ـ النص على منع أى أحد كائنا من كان أن يجير أحداً من قريش أو من حلفائها : « وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها » .

* * *

ألا يشعر المرء بعد أن عرف كيف كان هذا الدستور أن أثره كان حاسما وعظيما فى تصحيح الأفكار وتطويع النفوس وتنظيم هذا المجتمع الجديد وضمان مستقبل دولة محفوف بالمخاطر وملبد بالغيوم .

لقد توحدت بهذا الدستور هذه الجبهة الداخلية المفككة ، وقويت بهذا التوحيد ، وبدأت تعد نفسها فى الحال ، فإن الأعداء المتربصين بها يستعدون بل هم على أتم الاستعداد للانقضاض عليها مرة واحدة قبل أن تغوص فى الأعماق جذورها ، ويرتفع فى السماء فرعها ، وتنداح فى الأرض رقعتها .

ولقد ظل معمولا بهذا الدستور حتى سنوات الحرب العشر التى ابتدأت بعد هجرة الرسول ﷺ بقليل وانتهت برحيله إلى الله عز وجل .

ولم يوضع دستور آخر ليحل محله حتى فى أيام الخلفاء الراشدين ولا فى العصور التى تلت عصر الخلفاء إلى أن زالت الخلافة فى آخر أيام العثمانيين ١٣٥٩ هـ ١٩٣٩ م .

فإن القرآن بعد أن اكتمل وحيه وتمت كلمات الله صدقا وعدلا أصبح هو الدستور الدائم للأمة الإسلامية إلى يوم القيامة ، ولم تكن الخطب الشفوية

من خليفة الرسول ﷺ ، وممن أتى بعده من أمراء المؤمنين إلا تركيزاً موجزاً على القضايا الأساسية وهي :

مسئولية الحاكم ، مراقبة الأمة لتصرفاته ، شريعة الله هى الحاكمة ، المساواة المطلقة بين أفراد الأمة عامة عند تطبيق العدالة بصرف النظر عن أوضاعهم النسبية أو أحوالهم المادية .

فضلا عن أن الرسول ﷺ نص على أن القرآن والسنة (وهى المذكرة التفسيرية له) هما الدستور الدائم للأمة الإسلامية : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله وسنتى ، عضوا عليهما بالنواجذ » .

أما خطبة الوداع فسيكون لها تحليل خاص فى آخر هذا البحث .

وبدراسة الدساتير التى وضعت حديثاً ولا سيما فى البلاد المتقدمة حضاريا وقانونياً نجد القصور واضحا فى الصياغة والعمق والترابط والشمول .

فعلى سبيل المثال نجد فرنسا وقد بدلت دستورها خمس عشرة مرة فى أقل من قرنين من الزمان ، أى من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٩٧٠ م ، ولم تستطع هذه الدساتير أن تفى بالغرض المقصود فى إقامة العدل المنشود[١] .

وهذا عدا التغييرات والتعديلات المتعددة وعلى فترات متقاربة ودون أسس منطقية لقوانينها التى وضعتها منذ سنة ١٨٠٤ م . والتى تسمى المجموعة القانونية لنابليون Code de Napolion[٢] .

---

(١) الدساتير الفرنسية Les constitutions de France .

(٢) انظر كتابنا بالفرنسية .

Le testament obligatoire en droit musulman، étude comparative .

٥ - السوق :

مع هذا التفكير السياسى والعمل الدستورى العظيم لم ينس الرسول ﷺ أن ينظم الناحية الاقتصادية لهذه الدولة ، فان السياسة الاقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا بكيان الدولة السياسى .

وقد عرفنا أن قبائل اليهود كانت تحتكر التجارة والأسواق وبيدهم عصب الاقتصاد فى المدينة ، ومثل هذا الوضع الشاذ يجعلهم دولة داخل الدولة، يتحكمون فى مقدراتها ويرسمون على هواهم سياستها فى الحال والمستقبل كما كانوا يرسمون فى الماضى .

ولذلك تنبه الرسول ﷺ من أول الأمر إلى هذه الخطورة ، فدرس الأمر دراسة ميدانية وذهب بنفسه إلى أكبر سوق لليهود فألقى عليه نظرة فاحصة ، ثم بحث عن مكان فى المدينة يعدل هذا السوق أو يفوقه فى المساحة والمركز والنظام ، فعن عطاء بن يسار قال : لما أراد رسول الله ﷺ أن يجعل للمدينة سوقا أتى سوق قينقاع ، ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال : هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج »[1].

ولكن كيف كان نظام الحكم فى هذه الدولة الناشئة ؟

٦ - نظام الحكم :

مقارنة نظام أيام الحكم أيام رسول الله ﷺ بأنظمة الحكم اليوم يعتبر عملا معكوسا وغير منطقى وبتعبير آخر هو : المنطق المعكوس . والمنطق الموزون أو المعتدل هو أن تدرس أنظمة الحكم الحديثة فى ضوء نظام الحكم أيام الرسول ﷺ ، فإن كل نظام للحكم تثبت أصالته ويشهد التاريخ بعبقريته وينطق الواقع بفعاليته يعتبر هو المصدر الذى يرجع إليه، والأساس الذى يبنى عليه والأصل الذى يقارن به ، وكل نظام لا تتوفر له خصائص الأصالة والعبقرية

---

(١) السمهودى نور الدين على بن أحمد ، وفاء الوفاء حـ٢ ص٧٤٧ ومابعدها.

والفعالية ليس من المنطق السليم ولا من الواقع القويم أن يكون أصلا لموازنة ولا مصدراً لمقارنة .

والمؤلفات التى وضعت وتكاثرت حديثا لمعالجة أنظمة الحكم أو التى تعنى بالدساتير والقوانين الدستورية — لم تجمع على أن هناك دستورا يمكن أن يتخذ نبراسا تقتبس من ضوئه دساتير العالم ويستطيع أن يشعر بالأمان فى ظله أنظمة الحكم .

وأنظمة الحكم التى عرضتها بالشرح والتفصيل هذه المؤلفات — ليس فيها نظام واحد نستطيع أن نمنحه وصف الصلاحية لكل زمانٍ ومكان أو على الأقل نقول عنه إنه قد ثبتت صلاحيته فعلا فى البلد الذى طبق فيه ! فهل النظام الرئاسى أو النظام الملكى أو النظام البرلمانى أو النظام الذى يكون مزيجا من هذا وذاك ، أو الاستفتاء المباشر أو الاستفتاء غير المباشر أو غير ذلك مما تغص به هذه المؤلفات — قد أثبت صلاحيته عندما طبق أو بعد أن مرت عليه تجربة الاختبار فى التطبيق ؟

ولعلنا نعرف من كثرة مايتردد على الألسنة الآن من ألفاظ حول أنظمة الحكم بعض هذه الأنظمة كالديمقراطية والدكتاتورية والبيروقراطية والارستقراطية والتيوقراطية ، وهذه الألفاظ الأجنبية لها تاريخ طويل قد عمق معانيها فى أغوار النفس عند الشعوب الغربية جميعا ، واتصلت هذه الألفاظ ومعانيها بحياة هذه الشعوب وثقافتها وحضارتها ومناهج التفكير والتعليم والتطور فيها .

ولقد كان وضع هذه البلاد فى حالة يرثى لها من تأله الحكام وقهر الشعوب ، مما سبب ثورات عنيفة فقدت فيها هذه الشعوب كثيرا من الضحايا لاستخلاص بعض الحقوق لهذا الإنسان الذى يعامله حكام هذه الشعوب كما يعامل الحيوان أو ما هو دون الحيوان .

وشغل بعض الفلاسفة والمفكرين والقانونيين هناك بوضع أسس ثابتة

لحياة الإنسان وحقوقه واقتراح نظم للحكم تكفل للإنسان حاجاته وتضمن له مستقبل حياته ، فتحدثوا عن هذه الحقوق وهذه الأسس وهذه النظم[١] .

أما البلاد الإسلامية فإنها لاتهضم هذه الألفاظ ولاتستسيغ هذه النظم ، لأنها نبتت في بيئة غير بيئتها ، فهي مثل النبات الذى لايصلح إلا فى مناخ خاص ، فإذا زرع في غير مناخه ذوي ومات ، فإن بلدا ما عندما تعتنق الإسلام تدخل الحرية من أوسع أبوابها ، فيتحرر فكره من أوزار العقائد المزيفة ، ويتحرر سلوكه من أوزار الرذائل الفاحشة ، وتتحرر علاقته بالناس من أوزار الشرائع الظالمة ، ثم يدرك تماما أن شرع الله هو المسيطر على الحاكم والمحكوم على سواء .

والعقائد هي القضايا الراسخة فى ذهن الإنسان والمسيطرة على فكره ومشاعره ، والتعبير عنها أمر منطقى لا يصح أن يقف فى طريقه أخذ بقهر أو إكراه ، بل يعرض عليه الحق ثم يترك له الخيار : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٢] ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ »[٣] .

والأمور التى تختلف فيها وجهات النظر هي مجال الشوري التى جعلها الله على الحاكم أمرا مفروضا وقانونا ملزما « وشاورهم فى الأمر »[٤] ، وحث على أن تكون سلوكا مألوفا وخلقا معروفا بين المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم »[٥] .

ولذلك نجد الألفاظ والتعبيرات السائدة فى البلاد الإسلامية حول هذا

---

(١) انظر مونتسكيو ، روح القوانين Montesquieu, De l'esprit Des Lois
وكذلك روسو ، العقد الاجتماعى Roussseau, Le Pacte Social
(٢) الكهف آية : ٢٩
(٣) يونس ، آية : ٩٩
(٤) آل عمران آية : ١٥٩
(٥) الشورى ، آية : ٣٨

الموضوع هي : الحكم بكتاب الله أو الحكم بشريعة الله أو الحكم الشورى ، فالقضية بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الإسلامية هى شرعية الحكم لا دستوريته ، وشوريته لاديمقراطيته ، فقد يكون الدستور الموضوع شعارا يخفى وراءه مظالم الحكام واستبدادهم ، كما أن كلمة الديمقراطية قد تكون ملهاة يخدع بها جموع المظلومين والكادحين .

وما دمنا قد قررنا أن نظرة المسلمين إلى الحكم تختلف اختلافا كليا عن نظرة الغرب إليه من حيث المنهج والتطبيق ، فينبغى أن نوضح قواعد هذا المنهج ونبين كيف كان تطبيقه .

أما قواعد هذا النظام فى الإسلام فهى :

١ — حاكم يطبق شرع الله على نفسه وعلى الأمة .

٢ — أمة تراقب الحاكم وتراقب كل فرد فى تنفيذ شرع الله .

٣ — تشريعات واضحة يفهمها الناس جيدا ولا تناقض دستور القرآن[١] ولا السنة (مذكرته التفسيرية) .

أما التطبيق ، فإن الحاكم يظل قائما بالحكم مادام ينفذ شرع الله دون تقصير أو انحراف ، وليس هناك مدة محدودة لسقوطه أو انعزاله ، أو ليس هناك نص يدعو إلى ذلك صراحة أو ضمنا ، فبقاء الحاكم وخلعه أو عزله مرتبطان بإقامة شرع الله وتنفيذ حكمه .

وإذا مات الحاكم خلفه يتولى الحكم مكانه بشرط البيعة ، والبيعة هى الانتخاب المباشر فى الاصطلاح الحديث ، ويمكن أن يشبه بها انتخاب الحاكم فى النظام الرئاسى .

وقد تكون البيعة لخلف عهد إليه الحاكم السابق قبل أن يموت ، وإن كان

---

(١) سنعالج هذا الموضوع باذن الله فى كتاب لنا بعنوان « الإعجاز التشريعى فى القرآن » .

الرسول ﷺ لم يعهد لأحد قبل موته ، إلا أن عدم عهده ﷺ لا يدل على منعها أو النهى عنها ، ولذلك عهد أبو بكر إلى عمر رضى الله عنهما ، ثم عهد عمر إلى ستة من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً[1] ، كي يختاروا منهم واحداً في مدى ثلاثة أيام من وفاته ، ومع ذلك ظلت البيعة أو الانتخاب المباشر هي الإجراء الدستورى الأخير للموافقة على من عهد إليه ، وكأن هذا العهد من أبي بكر ثم من عمر للتيسير على الأمة في اختيار من يصلح للقيام بتنفيذ شرع الله عند توليه الحكم .

وقد جرى تحت سقيفة بنى ساعدة أول إجراء سياسى لاختيار خليفة الرسول ﷺ ، ولم يتم انتخاب أبي بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله ﷺ بمجرد هذه البيعة الأولية أو هذا الاختيار المبايع عليه تحت السقيفة من كبار الصحابة مهاجرين وأنصارا ، بل تم بعد بيعة كل فرد فرد من المهاجرين والأنصار ، على أن أبا بكر لم يكن وحده هو المختار أو المرشح لذلك ، بل كان هناك أكثر من مرشح ، فقد رشح كذلك عمر وسعد بن عبادة وأبو عبيدة بن الجراح[2] ، على أن الأمة إذا كانت غير مستقرة الأوضاع يمكن أن يكتفى بمرشح واحد كما حدث من أبى بكر رضى الله عنه ، وإذا كانت مستقرة الأوضاع فيمكن أن يرشح أكثر من واحد كما حدث من عمر رضى الله عنه .

أما مراقبة الأمة لحاكمها فكيف كانت تجرى ؟ فى الواقع لم تحدثنا كتب السيرة عن جماعات أو هيئات أخذت طابعاً خاصاً في هذا وعرفت به ، وأصبح يطلق عليها الهيئة الدستورية أو المحكمة الدستورية أو لجنة مراقبة الحكام .

---

(١) هم : عثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ثم عبد الله بن عمر للترجيح لا للترشيح .

(٢) على هامش السيرة جـ ٤ ص ٣٠٦ وما بعدها .

والذى نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد هو أن كل مسلم كان حريصا وغيوراً على تعاليم الإسلام وشعائره وأوامره وزواجره وفروضه ونوافله ، فى خاصة نفسه وفى الناس من حوله وفى الحاكم الذى تولى أمره ، وقد أذكى شعور الحرص والغيرة فى نفسه ما كان يطرق سمعه وقلبه من أحاديث وآيات مثل قوله ﷺ : « الدين النصيحة : قيل لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قالوا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال : أن تحجزه عن الظلم فذلك نصره » ، « لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليوشك أن يعمكم الله بعذاب من عنده ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » وقوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب[1] » ، «إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[2] .

ولأن مثل هذه الآيات والأحاديث ـ وهناك منها الكثير ـ تطالع المسلم وتقرع سمعه وقلبه كل وقت وعلى الأقل كل أسبوع فى مؤتمر الجمعة ، فقد أصبح يعتقد أن موضوع المراقبة واجب عينى وليس واجبا كفائياً تقوم به هيئة أو جماعة متخصصة ويعفى الباقون ، فإن الذى يتفق مع طبيعة نظام الحكم فى الإسلام هو شمول المسئولية وعمومها وعدم إعفاء أحد منها « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . . « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين »[3] .

وهذا ما دفع عمر بن الخطاب إلى أن يعترض على رسول الله ﷺ كيف لا يحتجب نساؤه عن الذاهبين لزيارته ، وطالبه أن يحتجبن عن كل زائر ،

(١) الأنفال ، آية : ٢٥

(٢) العصر ، آية : ٢ ، ٣

(٣) الأعراف ، آية : ٦

كما دفع الحباب بن المنذر إلى أن يعترض على رسول الله ﷺ كيف عسكر بالجيش في غزوة بدر فى مكان غير ملائم من الناحية العسكرية .

ولقد ظل وضع الأمة الإسلامية على هذا النحو من الإحساس بمسئولية المراقبة ، وإن كان يضعف زمنا ويقوى زمنا ، ويمتد في بلد ويتقاص في بلد[1] إلى أن ابتليت البلاد الإسلامية باستعمار الغرب فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى .

ويمكن أن نفرق بين نوعين من تصرفات الحكام : نوع يدرك الجميع أنه مخالف لتعاليم الإسلام ومبادئه كإباحة الربا أو الخمر وغير ذلك، ونوع لا يدرك إلا المختصون وأهل النظر والرأى مدى مخالفته وخطورته .

وفى هذا النوع الثانى يصبح كل واحد من المختصين وأهل النظر والرأى مطالبا عينيا لا كفائيا بتوضيح المخالفة والخطورة للحاكم ونصحه بالعدول والاعتدال وإلا نشروا أمره بين الناس ثم طالبوا بعزله .

وحبذا لو رجعنا إلى مبدأ الحسبة (وهى القيام بإحقاق الحق وإبطال الباطل ابتغاء مرضاة الله) ، فعمقنا جذوره ووسعنا مداه حتى يصبح فى المجتمعات الإسلامية كصمام الأمان يحجز كل ظالم سواء أكان حاكما أم محكوما أن يعتدى على حقوق الناس أو أن يعصى أمر الله ويتعدى حدوده .

أما بالنسبة للتشريعات التى توضع لتقرير العدالة بين الناس وإرشادهم إلى حقوقهم وواجباتهم والحفاظ على أمنهم وإزالة أسباب النزاع والخصومات بينهم ، فإن فقهاء الإسلام فى كل عصر من عصور الإسلام حتى فى عصور الضعف، قد كفوا الناس مئونة استيراد تشريعات من هنا أو من هناك لتحقيق الأمن والعدالة والاستقرار .

---

(١) لقد قام بترشيح محمد على لحكم مصر علماء الأزهر فى سنة ١٨٠٥ م بعد أن رأوا حكم المماليك قد فقد شرعيته، وقد بايعه أهل مصر جميعاً.

ثم إن اللجان التشريعيه التى تؤلفها الإدارات الرسمية تنهج بذلك منهج الغرب فى هذا المجال على أنها إذا كانت تقوم بعملها وتؤدى دورها فى تجرد وإخلاص دون تجاوب مع هوى حاكم أو تغليب لجانب متسلط ، فلا بأس بأخذ تشريعاتها فى الاعتبار ثم نشرها والعمل بها ، وإن كانت على العكس من ذلك فلابد من المبادرة إلى حلها من قبل الأمة وبطلان كل مايصدر عن هذه اللجان من تشريعات .

نقول هذا تحقيقا للإنصاف، وإن كان أمر المجالس المنتخبة أو (البرلمانات) — وهو نظام مستورد كذلك يستحق إعادة النظر من جديد ، وإن نظام الانتخابات والتمثيل النيابى قد أثار الفتن وعمق الخصومات وضاعف الخسارات الكبيرة فى الأنفس والأموال ، على حين أن المجالس المنتخبة قد أثبتت فشلها الذريع فى القيام بوظيفتها أمام الحكام فى البلاد الإسلامية، ولم تمثل يوما ما رأى الأمة الإسلامية تمثيلا صحيحا صريحا .

ويمكن أن يعالج أمر المجالس النيابية بأن نفكر فى حلول تلائم منهج الإسلام فى دفع المسلمين إلى الاهتمام بأمورهم ، وتعميق أحاسيسهم بما يمس كيانهم ومصيرهم دون أن تكون هناك حواجز تقلل من هذا الاهتمام أو تضعف هذا الإحساس ، فكلما ألقى المسلم بتبعته على غيره قل اهتمامه وضعف إحساسه « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى »(١).

والحل الأمثل الذى يجنب البلاد ويلات النظم الغربية عن طبيعتها ويلائم منهج الإسلام من عصر الرسول ﷺ إلى عصر احتلال البلاد الإسلامية وتسلط عناصر غربية عليها — هو مايلى :

١ — أن يتولى المختصون كل فى مجاله تفقيه المسلمين كيف ومتى تكون المخاطر التى تهددهم فى كيانهم ومصيرهم وفى أخلاقهم ودستورهم، وبيوت الله هى مدراس هذا التفقيه .

---

(١) النجم ، آية : ٣٩ — ٤١

٢ ـ أن تكون وسائل الاعلام التى استحدثت والتى ستحدث مستقلة استقلال كاملا عن أى تسلط حكومى أو توجيه حزبى أو مذهبي ، وفى متناول أيدى الناس دون تفاضل أو تمييز .

٣ ـ أن يقوم أصحاب كل مهنة باختيار أصلحهم إجادة في المهنة واستقامة فى الخلق ، للائتمار بأمره فيما يعود عليهم وعلى مهنتهم بالفائدة والخير العميم . ويكون ذلك على مستوى القرية ثم المدينه ثم العاصمة . وقد تختلف طبيعة بعض المناطق عن الأخرى من زراعية وصناعية وصحراوية وجبلية ، ولذلك تختلف المهن باختلاف طبيعة هذه المناطق . وللحاكم الذى بويع بيعة عامة أن يختار من رؤساء هذه المهن على مستوى المناطق أو مستوى العاصمة من يعاونه فى الإدارة والاستشارة لكل المجالات التى تتطلبها حياة الأمة ورقيها .

وينبغى أن نتناول إكمالا لهذا الموضوع أمورا هامة تتصل بنظام الحكم:

الجيش والشرطة :

هل كان فى أيام رسول الله ﷺ جنود مخصصون للجيش وجنود آخرون مخصصون للشرطة كما هو الحال اليوم ؟ فى الواقع لم يفكر رسول الله ﷺ فى إنشاء جيش مهمته الدفاع عن الوطن أو الاشتراك فى حروب لكسب انتصارات للدولة ، ولا فى تكوين جنود شرطة مهمتهم الحفاظ على الأمن الداخلى ، وإنما كان الأمر يرجع فى الأمن الداخلى وفى الأمن الخارجى إلى التطوع ، ويجب أن يكون الأصل فى ذلك دائما هو التطوع .

والحق أن التطوع فى كل أمر من الأمور يدفع إلى الإتقان والإخلاص معا ، وكثيراً ما يكون المعين بالأجر بعيدا عن الإتقان كما يكون مجردا من الإخلاص ، وكم من جرائم خطيرة اكشفها محتسبون لم ينخرطوا فى أنظمة الشرطة : وكم من انتصارات باهرة حققها متطوعون مجاهدون لم ينضموا إلى جيش مأجور !

وأغلب الجيوش المأجورة للحفاظ على الأمن في الداخل والخارج إنما هي للحفاظ على نظام قائم والقضاء على الجبهات المعارضة وإسكات الألسن التى تتناوله بالنقد والتجريح . ولو أن ماينفق على هذه الجيوش من أموال الدولة أنفق فى مصالح الناس وتطوير معايشهم وتحسين حياتهم وتدريبهم على الدفاع عن أنفسهم لأصاب الناس خير كثير ولقلت إلى درجة ملحوظة نسبة الجرائم والحروب .

ولو كان جيش الشرطة ضرورة للأمن الداخلى وجيش الحروب ضرورية للامن الخارجى لوجدنا شيئا قريبا من ذلك فى نظام الحكم أيام رسول الله ﷺ ، ولاسيما أنه عليه الصلاة والسلام كان يشعر شعور عميقا بخطورة الوضع الداخلى وبخطورة الوضع الخارجى للدولة ، فى الداخل طوائف اليهود والمنافقين ومن لف لفها من قبائل الشرك ، وفى الخارج قريش وما تضمره من عداوة تدفعها إلى سحق هذه الدولة الناشئة.

وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ يعرف المنافقين ويشعر بحقدهم من نبرات عباراتهم فى مناقشتهم له وحوارهم معه « ولتعرفنهم فى لحن القول(١) » إلا أنه لم يأمر أحدا بالتجسس عليهم ولم يكون شرطة تتابع تحركاتهم وتكشف سوءاتهم وتعلن مؤامراتهم للتخلص منهم والقضاء عليهم وإراحة الناس من شرورهم ، فليست القضية وجود شرطة مأجورة للقيام بالرقابة وتتبع المجرمين ولكن القضية هى تكثير نسبة من نظفت سرائرهم حتى تضيق دائرة الشر والإجرام ، ويصبح هى فى من الدائرة فى خوف دائم وحياة غير مستقرة ، فأهم شىء فى تحقيق أمن المجتمعات أن يكثر فيها النظفاء لا أن يكثر الرقباء .

وقد كانت سياسة الرسول ﷺ من حيث الدفاع عن الدولة أن تكون الأمة كلها جيشا متدربا على فنون القتال حتى على سبيل اللهو اللعب فى

---

(١) القتال ، آية : ٣٠ .

أوقات الفراغ ، فعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه مرفوعا ، قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالرمى فإنه خير أو من خير لهوكم » رواه البزار والطبراني فى الأوسط ، ومر على قوم ينتضلون (يتنافسون فى الرمي) فيقول : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا . » رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه، وحذر المسلمين من التوقف عن ممارسة التدريب والتدرب على فنون القتال حتى بعد أن تدين الدنيا لهم فقال ﷺ :«ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» رواه مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه .

والحق أن الرمى والإجادة فيه مازال لها القدح المعلى فى الانتصارات والهزائم حتى فى العصر الذى نعيش فيه ، عصر القنابل والصواريخ التى لا تخطىء أهدافها ، فلو أن كل مسلم يتدرب على الرمى بأية وسيلة من وسائل إصابة الأهداف ، واستغل أوقات فراغه وساعات لهوه فى إجادة ذلك ، لأصبحت الأمة الإسلامية مرهوبة الجانب عزيزة السلطان ، ولعل الرسول ﷺ كان يستشف ببصيرته من وراء القرون ماسيصير عليه حالنا ، ففسر آية إعداد القوة فى سورة الأنفال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . . » ألا إن القوة الرمى « وكرر ذلك ثلاث مرات .

إن التدريب على الرمى أو التدرب عليه يربى فى المرء طاقات هائلة من تجميع المشاعر وتركيز الأفكار وإجادة التحكم وإتقان التسديد ومراعاة الظروف وحساب الوقت وحسن استغلال الفرص المواتية ، وهذه الطاقات لا بد منها حين يسدد المرء سهما يقذف به من نبله إلى هدفه المحقق ، أو حين يضغط بيده على ضاغط كهربى فينطلق صاروخ (الكترونى) من قاعدته فى اللحظة المعينة إلى هدفه المحدد .

ولنا أن نتساءل عن وضع الدول بعد أن دفعت المخترعات الحديثة إلى التفنن فى الإجرام والتفنن كذلك فى وسائل الحرب والدمار ، واقتضى

ذلك تخصيص مجموعة من الخبراء لمقاومة خطر الاجرام فى الداخل وأخرى لمجابهة خطر الأعداء فى الخارج .

وليس لهذا التساؤل محل إذا كان التطوع يكفى الدولة مئونة هذا كله. فاذا لم يكف التطوع لملء بعض المجالات كان على الدولة أن تملاها بمن تبينهم من المختصين، على أن نظام الحكم فى الإسلام هو تطوع كل فرد من أفراد الأمة للحفاظ على أمن الدولة فى الداخل وأمنها فى الخارج ، والتطوع هنا معناه القيام بهذا العبء ابتغاء مرضاة الله دون انتظار أجر من أحد .

ومعلوم أن غزوات الرسول ﷺ على كثرتها وسراياه كانت مكونة من جيوش من المتطوعين حيث يأخذ كل متطوع نصيبه فى الغنائم إن كانت وبعد معركة كل غزوة أو سرية ، يذهب كل جندى إلى حال سبيله فيباشر زراعته أو تجارته أو مهنته إلى أن يدعو داعى الجهاد إلى غزوة أو سرية أخرى .

ولم تكن المعارك الفاصلة فى تاريخ الأمة الاسلامية إلا بجيوش المتطوعين بقيادة الحكام ، فلم يقهر جحافل التتار إلا جيوش المتطوعين بقيادة محمود قطز ، ولم يكسر موجات الصليبيين إلا جيوش المتطوعين بقيادة صلاح الدين .

التصنيع :

ان فى الاصل أن تكون الصناعة فى الدولة تلبية لحاجات الناس فى الحرب أو فى السلم ، وتقوم الدولة بتشجيع هذه الصناعات ودفع القائمين إلى الجودة والإتقان فيها ، فقد روى البيهقى عن عقبه بن عامر أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذى يحتسب فى صنعته الخير ، والذى يجهز به فى سبيل الله ، والذى يرمى به فى سبيل الله » .

والصناعات الكمالية أو التى يمكن الاستغناء عنها يجب الحد منها وعدم

وعدم الغلو فيها ، ولذا حرم الرسول ﷺ لبس الذهب والحرير على الرجال إلا في حالات خاصة، وفرض الزكاة على حلي المرأة إذا زادت عن القدر المناسب لها[1].

أما الصناعات المحرمة فيجب تصفيتها تماما وعدم إقامة مصانع أو مؤسسات لها أو إنتاجها في دولة الإسلام ، فكيف يقام بين المسلمين مصنع للخمر أو مصنع لأدوات القمار أو غير ذلك من المحرمات ؟

ولقد هاجر الرسول ﷺ وفي المدينة بعض الصناعات التي يمارس أكثرها اليهود ، وكان عامة بني قينقاع صاغة[2] ، واستطاع المسلمون أن يجيدوا من هذه الصناعات ما يلبي حاجاتهم.

ولعل المسلمين يتنبهون الآن في ضوء هذه السياسة التصنيعية إلى أن التيار قد جرفهم وأن الغزو الصناعي الذي دهم العالم قد دهمهم، ولعلهم بعد أن يفيقوا من سكرتهم يراجعون أمر التصنيع في بلادهم وأمر المستوردات التي تغمر أسواقهم بكثرة من مصانع أخرى خارج بلادهم .

والسياسة التصنيعية في بلاد الإسلام يجب أن تخضع لهذه المبادىء :

١ ـــ المصانع التي تنتج أشياء محرمة وكذلك المستوردات الحرام يجب تنظيف البلاد منها .

٢ ـــ المصانع التي تلبي حاجات الناس وتيسر عليهم أسباب العيش والأمن يجب أن تقام داخل البلاد الإسلامية وفي أسرع ما يمكن من وقت .

٣ ـــ المصانع التي تنتج أشياء للزينة والكماليات يجب الحد منها وعدم الغلو فيها ، على ألا يستورد شيء من ذلك على الإطلاق .

---

(١) البخاري ، اللباس والزينة .

(٢) اسرائيل ولنفسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٨ .

ومشكلة الدول الصناعية الآن أنها تورطت فى إقامة مؤسسات صناعية دون أن تقوم فى الأصل على أساس سليم وخطة حكيمة وسياسة راشدة ، بل كانت تقصد من وراء ذلك الربح وكفى ، سواء من حرام أم من حلال ، وسواء وافقت حاجة الناس أم لم توافق . المهم عندها أن سلاح الدعاية بفنه وسحره ، يغرى عامة الناس فى العالم على الإقبال على مصنوعاتها وتحقق من وراء ذلك الربح الوفير .

ولقد اصطدمت هذه الدول الصناعية من جراء سياستها الرعناء بمشكلة الطاقة التى لم تكن تفكر فيها تفكيرا جديا ، ثم بدأت التفكير بعد أن فات الأوان . والعجيب أن البلاد الإسلامية هي التى تملك هذه الطاقة ، هي التى تتحكم فى وقود هذه المصانع ، فلماذا لا تفرض سياستها التى ترضى الله فى أمر التصنيع ؟

الميزانية :

هل كان لبيت المال أيام رسول الله ﷺ سياسة خاصة فى موارده ونفقاته؟

إن وضع ميزانية اليوم لدولة ما يتطلب جماعة متخصصة من خبراء ذوى مستوى عال فى الشئون الاقتصادية ليحققوا التناسب المطلوب بين موارد الدولة ومصروفاتها ، ويوازنوا بين النسب الدقيقة التى يقتضيها تطور الدولة فى التعليم والدفاع والمنشآت الاقتصادية والخدمات المدنية والديون ومرتبات الموظفين الرسميين ... إلخ[1] .

والذى عقّد موضوع الميزانية اليوم أن الدولة تأخذ على عاتقها وتكلف نفسها بما تستطيع الأمة أن تقوم به من تعليم أو دفاع أو خدمات ، ولو اكتفت بأن تقوم بمهمة القاضى الأمين والإمام العادل الذى يفض منازعاتهم ، ويحقق التوازن بينهم ، ويقودهم فى طريق الحق إلى ما يبغون ويأملون — لما وقعت

---

(١) رينيه سفاتيية René Svatier, Le droit Comptaple au Service de L' homme, P. 468.

في هذا التعقيد ولما احتاجت إلى هذه الجهود الضخمة وهؤلاء الخبراء المختصين ، فإن الأمر أبسط مما يظنون أو يعتقدون .

ولذلك لم تكن هناك مشكلة ميزانية أيام رسول الله ﷺ ، فإن وظيفة الدولة كما يفهمها ﷺ إنما هي وظيفة قيادية وليست تجارية أو صناعية أو غير دلك من وظائف الاستغلال والربح .

والمؤسسات التجارية أو الصناعية الكبيرة هى التى تحتاج إلى هذه الجهود الضخمة والخبراء المختصين فى وضع ميزانياتها وتقدير النسب بين حصيلة العمل وكمية المصروفات ثم تقدير الظروف المحيطة بذلك على المستوى المحلى والمستوى الدولى .

وموارد بيت المال أيام رسول الله ﷺ كانت على قدر المصروفات التى تريد الدولة إنفاقها لتحقيق التوازن بين طبقات الأمة ، فقد كانت مكونة من المفردات الآتية :

١ — خمس الغنائم . ٢ — الزكاة . ٣ — الفيء .

٤ — مايقدمه الأغنياء المحسنون من صدقات .

ولم يرد الرسول ﷺ أن يفرض رسوما على محاصيل الزراعة أو منتجات الصناعة أو واردات التجارة ، بل حرم المكس والجباية ، فإن ذلك يجر إلى اشتغال الدولة بغير وظيفتها الأساسية ، ويؤدى بها إلى التطلع إلى ما فى أيدى الناس من أموال ، ووظيفة الدولة الإسلامية كما سبق أن أشرنا إنما هى تحقيق التوازن بين طبقات الأمة من أغنياء وفقراء : « إنما هى صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم »(١) ، «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(٢) ، « ما أفاء

---

(١) رواه ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) الأنفال ، آية : ٤١

الله على رسوله من أهل القرى فلله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم»[1] .

الخدمات :

لكن إذا كانت وظيفة الدولة هى تحقيق التوازن بين طبقات الأغنياء والفقراء ، فمن إذاً يقوم بتيسير الخدمات للأمة ؟ من الذى يتولى إقامة المؤسسات التعليمية أو الصحية من وقائية أو علاجية ؟

بل من أين تتوافر النفقات الطائلة التى يتطلبها تحصين حدود الدولة وتوفير الأمن لها ، وتعيين الخبراء المختصين من أجل ذلك والتى قد تكون فى حاجة إليهم حيث لم يتوفر مختص متطوع .

ونحن إذا ألقينا نظرة على الدستور الذى وضعه رسول الله ﷺ نجد الجواب عن هذه الأسئلة ، فالرسول ﷺ قد وزع بسياسته الرشيدة السلطة الإدارية على جميع طوائف الأمة لتقوم كلها بنفقات الدفاع والخدمات.

ويكفى هنا أن نذكر بعض فقرات هذا الدستور : «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين » ، « المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالهم ونظامهم) يتعاقلون بينهم (فى أمر الديات) وهم يفدون عانيهم (أسيرهم أثناء الحرب) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم ... وبنو ساعدة على ربعتهم ... »[2] .

وهكذا عدد الدستور القبائل والطوائف ووزع عليها السلطة وألزمها بأن تقوم من ناحيتها بواجباتها من حيث النظام والخدمات والدفاع .

ونستطيع أن نشبه نظام اللامركزية بما صنعه رسول الله ﷺ فى هذا السبيل، كما نستطيع أن نشبه نظام البلديات بما كانت تقوم به القبائل والطوائف

---

(١) الحشر ، آية : ٧

(٢) قد ألحقنا نص الدستور التكامل بهذا البحث .

من خدمات ، فإن العائدات التجارية والصناعية والمحاصيل الزراعية كانت كلها ترجع إليها دون أن تشاركها الدولة فى ذلك ، كما أن أربعة أخماس الغنائم كانت توزع على المحاربين منهم ، فلماذا لايقوم كل من هذه القبائل والطوائف بما يتطلبه مجتمعها من خدمات ؟

وذلك فى الحقيقة بدفع كل منها إلى الشعور بمسئوليتها والقيام بها خير قيام وعدم الاعتماد على الدولة فى كل أمر من أمورها وخاصة مايتصل اتصالا مباشرا بحاجاتها الأولية من تعليم وصحة ونظافة وأمن واستقرار .

الملكية :

ويسوقنا الحديث حول الميزانية والخدمات إلى الحديث عن الملكية ، فكيف كان وضع الملكيات أيام رسول الله ﷺ ؟ أو كيف كانت سياسة الرسول ﷺ حول هذا الموضوع .

ونرى أنه لابد من توضيح أمر الملكية ولاسيما أن المذاهب التى ألحت على أذهان الناس اليوم وسببت صراعا عريضا ونزاعا طويلا بين الأمم تدور حول موضوع الملكية ، فالرأسمالية والاشتراكية والشيوعية وما يتفرع عن هذه وتلك من مذاهب ماهى إلا مذاهب أساسها الصراع على التملك :

ولقد كانت سياسة الرسول ﷺ في موضوع الملكية واضحة من أول الأمر ، فقد أبقى فى الدستور كل قبيلة على وضعها ونظامها وملكيتها فلاتشاركها الدولة فى شيء من ذلك ، كما سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن المصالح والخدمات لكل طائفة .

بل إن الرسول ﷺ قد فتح باب التملك على مصراعيه لكل فرد ، ومعلوم أن محور الملكيات وأساسها الأرض ، فمن أراد أن يملك من الأرض شيئا فليملك ولكن بشرطين :

١ ــ أن يبدأ بإعمارها بالبناء أو بالزرع ، فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : « من أحاط حائطا على أرض فهى له » رواه أحمد وأبو داود .

٢ — ألا تكون ملك أحد قبله ، لقوله ﷺ :« من سبق إلى مالم يسبق إليه مسلم فهو له » ، وقد أدخل الفقهاء فى إعمار الأرض حفر البئر وحددوا ملكية الأرض حول هذه البئر بخمسين ذراعا ، فمن حفر بئراً تملك ما حولها من الأرض على بعد خمسين ذراعا من كل جانب ، وهى مساحة لا بأس بها ولا سيما إذا تعددت الأبيار المحفورة .

وقد فهم الفقهاء من هـذه النصوص أن الملكية بالإحياء مطلقة للمسلم والكافر على سواء بإذن الإمام أو بغير إذنه ، فإن نص الحديث أطلق الحكم فلا داعى لاشتراط ما أغفله النص .

على أن الإمام يجب ألا يضيق على الناس نشاطهم فى هذا المجال ويحد من تنافسهم فيه ، ولو ترك له التحكم بالإذن وعدمه لكان هذا سبيلا إلى التملق والمحاباة ثم الفتور وعدم التنافس .

وطالما كان التملك لنشر العمران وتكثير موارد الخير بين الناس فليس للإمام أن يتدخل من قريب أو بعيد للتأثير على ملكية أحد ، أما إذا كان التملك مدعاة للتضييق على الناس واحتكار معايشهم واستغلال مواردهم ، فهنا يجب التدخل لحفظ التوازن بين طبقات الأمة ، فقد روى مسلم عن عمر بن أبى معمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من احتكر طعاماً فهو خاطىء » وفى لفظ أبى داود والترمذى : « لا يحتكر إلا خاطىء » ومعنى خاطىء آثم ، والآثم أو المذنب تجب عقوبته ، والعقوبة أصلا تناسب الإثم .

أما الرأسمالية والشيوعية والبرجوازية والبروليتاريا فهى ألفاظ حديثة دخيلة علينا ، وهى تمثل أوضاعاً وبيئات غريبة على أوضاعنا وبيئتنا ، فكيف نقارن بها نظمنا وأوضاعنا ؟ إن الشيوعية قد تولدت من الرأسمالية بعد مخاض شاق وعنيف ، ثم أصبحت كالبنت التى عقت أمها ، أو هى قد وُلدت فى الأساس لهذا العقوق .

العملة :

من الأمور التي تتعلق بنظام الحكم في الدولة الوحدات النقدية التي يجرى التعامل بها ، ولكى تشعر الدولة باستقلالها وعدم تبعيتها لدولة أخرى تقوم بإصدار عملة خاصة بها تتميز عن غيرها من العملات الجارية في البلاد الأخرى.

فهل كانت سياسة الرسول ﷺ عندما أقام الدولة بالمدينة أن يصدر عملة خاصة بهذه الدولة .

يبدو لنا بعد البحث فى هذا الموضوع أن الرسول ﷺ قد اختار الدينار ليكون وحدة العملة التي يجرى استعمالها بين المسلمين ، مخالفاً بذلك دولة الروم التي كانت تتعامل بوحدة نقدية تسمى الآس (A S)[١] ودولة الفرس التى كانت وحدة عملتها الفلس (Fils)[٢] .

وأصبح التعامل بالدينار خاصا بالمسلمين ، واستطاعوا أن يجعلوا هـذه العملة عالمية تنتشر بانتشار الدين وتذهب إلى حيث ذهب .

ومما يجعلنا نرجح ذلك أنه لم يرد ذكر الدينار إلا فى سورة آل عمران ، وهى من أوائل ما نزل بالمدينة إذ نزلت بعد سورة الأنفال التى تتعلق بغزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة .

ثم لماذا تخضع الدولة فى تعاملها لعملة أخرى ، ربما تُلغى وربما يهبط مستواها فيصيبها من جراء ذلك خسارة كبيرة قد تهز كيانها الاقتصادى .

وحبذا لو فكر الخبراء المسلمون المشتغلون بالاقتصاد فى ضوء هذه السياسة الاقتصادية التى نود أن نكون موفقين فى نسبتها إلى الرسول ﷺ ، فعملوا بجد على تخليص العملات الإسلامية التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعملات أجنبية ،

---

(١) Larousse, dictionnaire. mot (A S) - Monier, Manuel élémentaire de Droit Romain, T.1, P. 336.

(٢) J. Østruf, Catalogue des monnaies arabes et Turques.

وأوجدوا عملة واحدة إسلامية تقف صامدة فى وجه هذه العملات ويجرى على أساسها التعامل على المستوى الدولي والمحلي ، بل تقوم على أساسها عملات الدول الأخرى ولا سيا أن هناك عوامل ستساعدنا على ذلك ، وهى ما يلى :

١ ـ ذبذبة العملات الأجنبية وعدم استقرارها على معدل واحد مما يدل على أن هناك أيد خفية تتلاعب لإحداث هذه الذبذبات .

٢ ـ الحجم التجارى لصادراتنا إلى دول العالم قد تضاعف ومازال يتضاعف يوما بعد يوم مما يساعدنا على فرض عملتنا على أسواق العالم .

٣ ـ سياستنا فى التصنيع ستأخذ منهجاً آخر تجعلنا نكتفى بصناعاتنا اكتفاء ذاتيا ونحد من الواردات المصنعة فى البلاد الأخرى . والطاقة فى يدنا تعيننا على تنفيذ ما نبغى دون عناء .

على أن الدكتور ضياء الدين الريس فى كتابه الخراج يرى نقلا عن البلاذرى فى بعض رواياته أن قريشاً كانت لها أوزان فى الجاهلية ، كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهما ، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً ، فدخل الإسلام فأقرت على ما كانت عليه . . . وكانوا يتبايعون على هذه الأوزان ، فلما قدم النبي ﷺ أقرهم على ذلك[١] .

ثم يقول بعد ذلك : ومن مميزات الدولة الإسلامية أنها كانت شديدة الحرص على الاحتفاظ بسلامة العملة وجودتها . فأما الدينار فكان يضرب على الدوام بدقة . . . وكان عمر وعثمان إذا وجدا الزيوف فى بيت المال جعلاها فضة[٢] .

---

(١) الدكتور ضياء الريس ، الخراج ج ٣٤٠ ،والبلاذرى فتوح البلدان ص ٤٧١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٢ .

ورأينا أن هذا الحرص الشديد دليل على اهتمام الدولة بعملتها، ولذلك فهى معنية بها هذه العناية البالغة : ولو كانت عملة أمم أخرى أو عملة الجاهلية ما كانت هذه العناية البالغة وهذا الحرص الشديد ، على أن البلاذرى يعرض روايات غير موثقة ، ولا نستطيع أن نأخذ منها حكما جازما ، ومنطق العقل مع القرائن والنصوص التى ذكرناها يدفعنا إلى أن نقول إن دولة الإسلام فى المدينة قد وضعت لنفسها عملة خاصة بها تهتم بها كل الاهتمام لتكون وحدة التعامل مع غيرها من الأمم .

الهيئات السياسية :

وهذا أمر آخر يكثر الحديث عنه عندما يثار نظام الحكم . فهل يرتبط بنظام الحكم الدستورى أو غيره وجود الهيئات أو الأحزاب السياسية أو عدم وجودها ؟

وأود أن أقول بادىء ذى بدء : إن الأحزاب السياسية لم تقم فى بلاد المسلمين إلا بعد أن دخلها الاستعمار ، وصارت ملهاته فيها أن يضرب حزباً بآخر ويقيم هذا ويقعد ذاك ، فإنها جميعاً أحزاب تتطلع إلى الحكم لإرضاء المستعمر وإبقاء نفوذه فى البلاد أطول وقت ممكن .

وإذاً فالأحزاب السياسية دخيلة على مجتمعنا ولا تتفق مع طبيعته وتقاليده ونظام حكمه الذى يجب أن نخلصه من شوائب النظم الدخيلة ونرجع به إلى عهده وأصله ، حيث تكون البيعة للحاكم عامة وتكون الأمة كلها رقباء عليه فى تنفيذ شرع الله وإقامة حدوده .

ويجرنا الحديث عن الأحزاب أو الهيئات السياسية إلى الحديث عن الهيئات الإسلامية أو كما يقال الهيئات الدينية . فهل نظام الحكم فى الإسلام يسمح بقيام مثل هذه الهيئات ؟

الحق يقال إن الأمة فى أيام الرسول ﷺ وحتى بعد عصر الرسول فى

أيام الخلفاء الراشدين لم تكن في حاجة إلى مثل هذا النوع من الهيئات ، فالأمة كلها تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١) .

إلا أنه بعد أن دخلت الدنيا على المسلمين، وحدث التفرق والشتات بينهم ورق الدين في قلوبهم ، دعا ذلك إلى وجود مجموعات من الدعاة لتجميع الناس على الحق وتعميق الإحساس بالمعروف والمنكر في نفوسهم وربطهم بالإسلام وشعائره ربطاً قوياً ، تنفيذاً لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »(٢) . هذه الآية التي وضعت العلاج لما سيحدث في تاريخ الأمة من أمراض التفرق والشتات بعد رقة الدين وضعف تمسكها بشعائره ، ويتبين ذلك من الآية التي سبقتها والآية التي تلتها مباشرة ، حيث تذكرهم السابقة بتفرقهم في الماضي : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . . » وتذكرهم الآية التالية بتفرق الأمم التي سبقتهم : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم » .

وهنا يجب أن ألقي الضوء على وضع هـذه الهيئات التي تدعو الناس إلى الحق . إن هذه الهيئات لا تدعو كفاراً إلى الإسلام في بلاد الإسلام ، وإنها لا تأتي بإسلام جديد ، وإن الذين تجمعوا فيها ليسوا وحدهم المسلمين وغيرهم يعتبرون خارج عن الإسلام ، وإن إضافة لفظ الإسلام إلى عناوين هذه الهيئات يشعر الآخرين بأنهم غير مسلمين ، وإن كثيراً من الذين ينتسبون إلى هذه الهيئات يعتقدون أنهم ملائكة وغيرهم شياطين .

ثم إن بعض هذه الهيئات تقصر وظيفتها على شعيرة واحدة من شعائر

---

(١) آل عمران ، آية : ١١٠

(٢) آل عمران ، آية : ١٠٤

الدين تركز عليها فى دعوة الناس ، على حين تغفل الدعوة إلى شعائر أخرى قصر فيها الناس .

وبعضها الآخر يظن أنه صاحب المنهج الشامل ويدفعه إلى ذلك الاصطدام بأحزاب بدأت تشعر بخطر المنافسة على الحكم والجاه ، وفى أثناء الصراع مع هذه الأحزاب السياسية تكون هـذه الهيئة قد تخلت عن كثير من منهجها وثارت رواسب الطين تعكر ما كان قد صفا فى نفوس دعاتها .

وإنى لأنصح هؤلاء وهؤلاء بما يلى :

١ — إن مهمة الدعاة هو تجميع المسلمين على الحق وتعميق الإحساس بالمعروف والمنكر فى نفوسهم وربطهم بشعائر الإسلام ربطاً قوياً ، فليتذكروا هذا جيداً عند دعوتهم .

٢ — يجب توحيد هذه الهيئات أو على الأقل جعلها مرتبطة بهيئة مركزية ذات خبرة عالية فى الدعوة والتنظيم كى يتم التناسق عن طريقها بين هـــذه الهيئات جميعاً .

٣ — اختيار اسم يؤخذ من الآية السابقة ويطلق على هذه الهيئات ، وليكن هذا الاسم هو : «هيئات الدعاة إلى الله » ، ثم تخصص كل هيئة باسم المكان الذى توجد فيه .

٤ — ليحذر كل داعية أن تفتنه الرفاهية عن الدعوة ، وأن تقعده الدنيا عن الآخرة ، وأن يموت فى عيون الناس وهو ما زال حياً يرزق ، فإنى لا آسى على داعية يعذب أمامى فى سبيل الحق حتى يموت ، فإنه مات ليحيا عند الله وفى ذكريات الناس عملاقا كبيراً ، وإنما آسى على داعية ينسى دعوته ويدوس مبادئه فى سبيل الجاه والعيش المرفه ، فإنه يعيش وقد مات عند الله وفى عيون الناس قزماً حقيراً .

وقبل أن نختتم هذا الباب نتناول موضوع الفصل بين السلطات بنبذة

قصيرة ، فقد شغل المفكرين المعنيين بالدساتير ونظم الحكم ، حتى إنهم زادوا وأفاضوا فيه بين مؤيد ومعارض .

والمؤيدون والمعارضون يؤيد كل منهم رأيه على أساس غير متين ، فبينما يرى المؤيدون أنه يساعد على حفظ التوازن والتعاون بين السلطات الثلاث : التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وإلا فإن اختل التوازن لصالح السلطة التنفيذية تحول النظام البرلمانى إلى نظام رئاسى ؛ وإن اختل لصالح السلطة التشريعية تحول إلى نظام حكومة الجمعية أى جمعية المشرعين[1] ، يرى المعارضون أنه يمكن تحقيق الدستورية فى النظام الرئاسي حيث تسيطر السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، وفى نظام حكومة الجمعية حيث يجمع البرلمان بين السلطتين التشريعية والتنفيذية[2] .

ولست أدرى كيف تسير دفة الأمور فى دولة تفصل بين سلطاتها الثلاث بحواجز ؟ حتي لو سمينا هذا الفصل استقلالا أو توازناً ؟ إنه الإيحاء بنوع من الحذر والتخوف أن تتغلب سلطة على أخرى ، ودولة تعيش سلطاتها فى هذا الجو وبهذه الروح لابد أن تتعقد أمورها ثم يهتز كيانها ومصيرها ، لأن كل سلطة من هذه السلطات عضو فى جسم الدولة يعمل مع الأعضاء الأخرى فى إمداده بالعافية ودفع الأذى عنه ، وليس كل سلطة دولة داخل الدولة تخشى من السلطات الأخرى التسلط والاحتلال .

وفضلا على عدم منطقية هذا المبدأ الذى شغل به المهتمون بالنظم الدستورية فى بلادنا ، فإنه كان مجرد فكرة طرأت على ذهن بعض المفكرين الأوربيين ، وكان ذلك فى القرن الثامن عشر ، ثم راقت هـذه الفكرة عند زعماء الثورة الفرنسية فى أواخر القرن نفسه فوضعتها فى دستورها ، ثم سادت فى الدساتير العربية بعد ذلك ، ثم لم تصمد أمام أفكار دستورية جديدة استطاعت أن تحل محلها فى كثير من الدساتير .

---

(١) Vedel, Manuel élémentaire de droit constitutionnel, 1949, p. 167.

(٢) سيد صبرى ، النظم الدستورية ص ٣٨ .

وعلى الرغم من ذلك فإن الدعاية التى صاحبت هـذا المبدأ ، ولا سيما بعد أن أخذت به الثورة الفرنسية ما زال لها صدى فى أذهان كثير من المفكرين الإسلاميين ، حتى إن أستاذنا أبا الأعلى المودودى يوافق على هذا المبدأ ويقوم بتحليله تحليلا قانونياً فى ضوء الشريعة الإسلامية فى إحدى محاضراته بعنوان « تدوين الدستور الإسلامى » ، بل إنه هو ومجموعة من ذوى القدم الراسخة فى الفكر الإسلامى وقعوا فى أحد مؤتمراتهم على المبادىء الأساسية للدولة الإسلامية ومنها المادة (١٩) التى تنص على فصل الهيئة القضائية عن الهيئة التنفيذية[١] .

إنى أكرر القول بأن بيئتنا وتاريخنا ومنهجنا تختلف اختلافاً جذرياً عن بيئة وتاريخ ومنهج البلاد الغربية التى نشأت فيها مثل هذه النظم والأفكار .

● ● ●

وبعد أن عرفنا سياسة الرسول ﷺ فى إقامة الدولة ما هى إذاً سياسته على النطاق الدولى ؟

---

(١) أبو الأعلى المودودى ، نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور .

سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم

على النطاق الدولى

لقد كان الوضع السياسي على النطاق الدولى فى عهد رسول الله ﷺ وضعاً كثير التعقيد صعب الدراسة ، حتى إن أى سياسى مستوعب لمناهج السياسة ، متفرس فى تحركات الدول وأبعادها السياسية ، متعمق فى دراسة الاحتمالات المستقبلة لسياسة ما ، لا يستطيع مع ما أوتى من خبرات وقدرات أن يصدر حكما حاسماً أو أن يرجح جانباً من الجوانب المحتملة للموقف الدولى فى هذا العصر ، فالحرب سجال بين الفرس والروم ، وهما القوتان اللتان تتنازعان قيادة العالم آنذاك ، وقد استطاع كل منهما أن يستولى على جزء هام من الجزيرة العربية ، وصار عرب كل جانب من الجانبين المستولى عليهما تابعاً تبعية كاملة ويدين بالولاء الكامل للقوة المتغلبة عليه ، فجنوب الجزيرة وشرقها تحت حكم الفرس ، وشمالها تحت حكم الروم ، ولم يبق بعيداً عن الخضوع والتبعية إلا بعض عرب الجزيرة حيث قبيلة قريش وبكر وخزاعة فى مكة وضواحيها وثقيف بالطائف ، والأوس والخزرج وبعض القبائل من اليهود فى يثرب وخيبر ، وبعض القبائل المتناثرة فى وسط الجزيرة .

موقف الدولة الناشئة :

لابد أن خبر هـــذه الدولة الناشئة قد وصل إلى مسامع الدولتين الكبيرتين وإلى الكتل السياسية هنا وهناك ، وربما وصل الخبر مشوها إلى بعض المسامع ، فإن آفة الأخبار رواتها ، فهل يا ترى يبدأ الرسول ﷺ بإرسال البعوث والرسائل ليعرفهم بدعوته ويطلب منهم الدخول فى دينه والاعتراف بدولته ؟

إن أية دولة تقوم في أيامنا هذه تنتظر الاعتراف بها أو تطالب به بعد قيامها مباشرة وإلا قوى احتمال سقوطها وسقوط القائمين بها ، فهل يمكن أن تكون نتائج الاعتراف وعدمه متشابهة فى الماضى والحاضر ، أو أن ظروف العالم اليوم تختلف اختلافاً واضحاً عن ظروفه فى الماضى ، حيث إنه اليوم أصبح كالأسرة الواحدة ، فقد عملت وسائل الاتصال الحديثة على تقريب المسافات وتشابك العلاقات وسرعة التأثر بما يحدث فى أى جانب من جوانب العالم مهما بعد ؟

ومهما كان من اختلاف الظروف بين عالم اليوم وعالم الأمس ، فإن قيام أية دولة ولو فى الماضى فى حاجة ماسة إلى الاعتراف بها وبمنهجها لأن لها علاقات متعددة بغيرها من الدول فى العالم التي نشأت فيه ، فلم تقم لتعيش فى عزلة كلية أو جزئية عن عالمها ، ولو أرادت ذلك فإنها لا تستطيع .

لا بد أن فكرة الاتصال بهذا العالم قد راودت الرسول ﷺ بعد أن أقام الدولة ، فهل ينفذ ما دار بذهنه فى الحال أو أن من حكمة السياسة وسياسة الحكمة أن ينتظر إلى الوقت المناسب ويركز اهتمامه ويصرف جهده فى تقوية قواعد هذه الدولة ومراقبة تحركات أعدائه المتربصين حتى لا ينقضوا فى غفلة لتقويض هذه الدولة والقضاء على دينها الجديد وحاكمها الرسول ؟

إن هناك قبائل تتميز غيظاً وتكيد كيداً للإيقاع بالرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وعلى رأس هذه القبائل قريش وثقيف وبنو عامر وبنو حنيفة وبنو عبد الدار . وربما اتصلت هذه القبائل سراً أو جهراً بإحدى هذه الدول القائمة من حولها فى الجنوب أو فى الشرق أو الشمال أو بإحدى هاتين القوتين المتحكمتين فى مصير العالم ، للتنفيس عن حقدها ضد هذه الدولة الناشئة .

ثم إن قبائل اليهود فى المدينة لا يؤمن جانبها فإنهم يعرفون مداخل

المدينة ومخارجها ، وربما قدموا خدمات جبارة من الداخل لقبائل العدوان من الخارج .

حدود الدولة :

وإذاً فلماذا لا ترسم للدولة الناشئة حدود تبث حولها الرقباء ؟ وتعتبر هذه الحدود حرماً للدولة لا يجوز أن يجتازها أحد إلا بإذن منها . ولا بد أن دوريات هؤلاء الرقباء متحركة من جانب إلى جانب ترصد أى تحرك من هنا أو هناك حتى لو كان هذا التحرك باسم الرحلات التجارية التى يمارسونها من قديم الزمان ؟

لا نقول هذا اعتماداً على وثائق مؤكدة ، ولكن إيماناً بأن منطق الواقع يدعو الفكر إلى ذلك ، ولعل بعض الباحثين يستطيع العثور على بعض الوثائق التى تؤكد إيماننا ، وهناك قرائن واضحه على ما نقول .

١ — إن هناك حدوداً طبيعية يمكن اتخاذها فعلا حرما لهذه الدولة الناشئة ، إذ يحدها من الغرب البحر الأحمر ، ومن الشرق جبال نجد ، ومن الشمال حدود الزراعة بينها وبين خيبر ومن الجنوب وادى العقيق فى منتصف المسافة بينها وبين مكة ، ووادى العميق هذا داخل فى حدود المدينة[١] .

٢ — عندما انتهكت قريش حرم المدينة ومرت بقافلتها التجارية فى السنة الثانية من الهجرة عبر حدودها ، خرج المسلمون بقيادة الرسول ﷺ بعد أن تأكدوا من هذه الأنباء التى حملها إليهم العيون والرقباء ، لمصادرة هذه القافلة التى اجتازت الحدود وانتهكت الحرم وأسر قادتها الذين لم يطلبوا إذنا ولم يحصلوا على رخصة بالسماح لهم من رئيس الدولة .

٣ — عندما انطلق المسلمون بقيادة الرسول ﷺ لمصادرة هذه القافلة

---

(١) ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

وأسر قادتها ، وجاسوا خلال الصحراء ، لم يحدث أن اجتازوا الحدود شمالا أو جنوبا ، وعندما التقوا بجيش المشركين الذى عبأ نفسه وأسرع فى الحال لنجدة القافلة ، التقوا به فى منطقة بدر الواقعة فى حدود المدينة ، وكان هذا اعتداء آخر من جانب المشركين .

دار الإسلام ودار الحرب : ـ

إنها لمهمة سياسية صعبة ، بل هى من الصعوبة بمكان ، أن يقرر رئيس دولة فى أذهان الناس ويصل ذلك إلى حد الإقناع أن دولته إنما هى دار السلامة والأمان لأن منهجها هو منهج الخير والحق والسعادة للبشرية جمعاء وأن الدول الأخرى لأنها لا تقوم على مثل هذا المنهج ، تقف لها بالمرصاد وتكشر لها عن أنيابها دائما لتلتهما فى أى وقت تشاء . ولكن الرسول ﷺ استطاع بسياسته الحكيمة الحازمة أن يقرر ذلك من أول يوم ويتأكد فى الأفهام يوما بعد يوم ، حتى صار حقيقة لا ينكرها إلا الحاقدون أو المكابرون .

لقد استطاع الرسول ﷺ أن يمسك بزمام الموقف من أول يوم ، ولم تستخفه الآراء التى ربما عرضت عليه وحثته على إيقاع الضربة الأولى بالعدو ، وكان يستطيع ﷺ أن يعبىء قوة ضاربة بعد أن استتب له الأمر بالمدينة ، ويأخذ قريشا على غرة فيقضى على رؤس الشرك فيها ، ويرهب بذلك من تحدثه نفسه من القبائل الأخرى بالاعتداء عليه ، ويصبح صاحب الكلمة الأولى فى الجزيرة العربية كلها .

لم يتجه الرسول ﷺ على محالفة قوة من القوى المعروفة فى عصره للتخلص من أعدائه ، وقد كان يستطيع ذلك لو أراد ، فإن القوتين الكبيرتين آنذاك كانتا تتنافسان على السيطرة على العالم ، ولم يتيسر لإحداهما أن تصل إلى قلب الجزيرة العربية ، وقد حاول من قبل أبرهة ملك الحبشة الاستيلاء على هذه المنطقة ولكنه فشل ، أفلا يكون من حسن حظ إحداهما أن يعرض

عليها الرسول ﷺ التحالف لكسر شوكة من يناصبونه العداء، وتسبق إلى مالم يسبق إليه منافسوها من الاستيلاء ولو بمثل هذا الوسيلة على قلب الجزيرة؟

لعل من الأفكار التى كانت تراود رسول الله ﷺ أن يتم الصلح بينه وبين قريش وينتهى ما بينهما من عداوة مؤرقة، ويود لو عرفت عنه أنه لايضمر لها سوءاً ولايريد بها شرا، بل إن الرغبه التى تملأ عليه أقطار نفسه هى أن يذهب اليها بنفسه ليثبت أمامها وأمام الدنيا أنه يرفض الحرب رفضا تاما ويأبى العداوة والبغضاء وسفك الدماء، وإنه أصبح فى مركز سياسى ودولى يساعده على أن يخوض حربا ضارية ينتقم فيها من أعدائه كما يشاء.

ولقد جاءت رؤياه فى السنة السادسة من الهجرة لتجعل من هذه الرغبة عملا إيجابيا فى طريق الأمان المنشود، فما كاد يرى الرؤيا حتى خرج بأصحابه فى ملابس الإحرام وساقوا الهدى أمامهم إلى الكعبة مهللين مكبرين، لا يحملون من السلاح إلا ما يحمله المسافر، ويشهدون العالم كله أنهم لزيارة البيت الحرام قاصدون، ولتقديس معانى الحق والخير والسلام يتحركون.

ولقد جاءت رؤيا زيارة الكعبة بعد خمس سنوات من إقامة الدولة فى وسط معمان الحروب الطاحنة بينها وبين قريش وبعض قبائل العرب، إذ كانت فى السنة السادسة من الهجرة، أى فى حوالى منتصف الزمن الذى قضاه الرسول ﷺ بعد إقامة هذه الدولة، وكانت ترجمة الرسول ﷺ عمليا فى الحال دليلا حاسما على أن دولة الإسلام هى دار الحق والخير والأمن، وإنها تتحرك فى إيجابية استجابة لمعانى الحق والخير والأمن، وأن من يصدها عن تحقيق هذه المعانى هو الذى يعادى هذه المعانى ويحاربها ويقف فى طريقها.

ولأن هذا التحرك الإيجابى كان للحق والخير والأمن، فقد كان مصيره فعلا الحق والخير والأمن وتم صلح الحديبية الذى حقق للناس الأمن المنشود، ومهد الطريق لقوافل الحق والخير، وكأن هذا الصلح كان الهدف الأساسى

الذى يتضمن ما سواه من أهداف ، فإذا تحقق الهدف الاساسى فلا بأس من التنازل عن الأهدف الأخرى أو تأجيل تحقيقها ، ولذلك تأجات زيارة البيت عاما آخر ليكون فى السنة السابعة .

ولقد أيقن فقهاء المسلمين بالمبادىء التى رسمتها السياسة النبوية على النطاق الدولى فسجلوها فى مؤلفاتهم وهم يذكرون أحكام الجهاد ، مكررين هذه العبارة « دار الإسلام ودار الحرب » ، هذه العبارة التى تعلن فى وضوح أن دار الإسلام لايخشى منها أى عدوان ولاتقصر فى تحقيق الأمان لكل من يريد الأمان ، وأن دار الشرك أو دار الكفر هى دار الحرب والعدوان ، لأن الكفار والمشركين لا يهدأ لهم بال ولا يطمئنون فى الحال أو فى المآل إلا بالقضاء على دار الاسلام وعلى من يريد اللجوء إلى دار الاسلام وعلى من يريد اللجوء إلى دار الاسلام طالبا للأمان «ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »(١)

وعلى الرغم من نية العدوان المتأصلة والرابضة فى نفوس أهل الكتاب والتى دفعتهم إلى الانضمام إلى أهل الكفر للوقوف فى وجه الحق وتعكير الأمن والصد عن سبيل الله ، فقد طلب الله من المؤمنين أن يكونوا أصحاب عفو وصفح « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، إن الله كل شىء قدير » (٢) .

ولقد ظل هذا التعبير الفقهى « دار الإسلام ودار الحرب » حيا فى مجال السياسة الدولية إلى عهد قريب ، لأن الأحداث التى كانت تجري فى العالم تؤكده وتسوق الأدلة الحاسمة عليه ، فما كادت مبادىء الإسلام يضعف تأثيرها فى نفوس معتنقيه ، وتسود الرفاهية مجتمعات المؤمنين ، حتى انقض أعداء الإسلام على ديار الإسلام فجاسوا خلال الديار وتبروا ما علوا تتبيرا ، ومازال

---

(١) البقرة ، آية : ٢١٧

(٢) البقرة ، آية : ١٠٩

التاريخ يذكر في لوعـــة وأسى فظائع التتــار وجرائم الصليبيين في ديار المسلمين .

وفي الوقت الذي يذكر فيه التاريخ باللوعة والأسى فظائع التتار ووحشية الصليبيين في ديار المسلمين ، يشهد في فخر واعتزاز أن المد الإسلامي الذي سار شرقاً وغرباً لم يكن يمهد له الطريق إلا أبناء البلاد الذين غلبوا على أمرهم وحرمهم حق الحياة والعيش الـكريم حكامهم والمستولون على مقدراتهم والمحتلون لبلادهم ، حتى إن الأتراك الذين نسب إليهم أنهم كانوا يحاربون في غلظة ووحشية ، لم يفعلوا ما فعل التتار والصليبيون من سفك دماء الأبرياء والإبادة الجماعية للشيوخ والأطفال والنساء ، فقد كان هؤلاء وهؤلاء كالبلاء الماحق ما يذر من شيء أتى عليه إلا جعله كالرميم .

وبعد سقوط الخلافة وتمزق البلاد الإسلامية شذر مذر ، لم يعد لهذا التعبير الفقهي مدلوله بل فقد معناه ومغزاه وخبت إيحاءاته وظلاله ، فقد صار كل بلد من البلاد الإسلامية ذيلا لبلد من بلاد الـكفر التي تكون في مجموعها دار الحرب .

وقد كان من المنطقي أن ترجع البلاد الإسلامية بعد أن استقلت وتخلصت من نير دار الحرب إلى عهدها الأول ، فتكون وحدة إسلامية وتصبح من جديد دار الإسلام الذي يحقق للناس الأمن والعدل ، فيأوى إليها المظلومون ويستظل بأمنها الخائفون .

ولـكن المؤسف حقاً أن بعض رعايا دول الإسلام يهرعون الآن منها ليلتمسوا دفء العدل ويستظلوا بفيء الأمن في بلاد الحرب والكفر ، مع أن العدل والأمن فيها ليسا قائمين على أساس مكين من منهج سليم وتاريخ مشرف ضارب في أعماق الزمن ، بل هما رد فعل لأفظع المظالم التي أرهقت البشرية ونكلت بها ، ونتيجة طبيعية لتاريخ مظلم لف أوربا بظلامه حقبة طويلة من الدهر ، حتى نسيت أن للإنسان قيمة وأن له حقوقاً مقررة في الحياة ، ولذلك ننتظر ردود فعل أخرى على ما حدث من ردود فعل ، وهكذا

ما دامت هذه التغيرات فى المجتمعات الأوربية تحدث دون ضوابط محكمة وأسس سليمة ترشد الناس إلى الحق الواضح وتأخذ بيدهم فى ثبات وحكمة إلى أسمى هدف وأنبل غاية .

ويجب أن ننبه إلى نقطة هامة حول الحروب التى قامت بها دولة الإسلام فى عهد الرسول ﷺ فإنها لكثرتها يضل فى تحليلها المفكرون ، ويذهبون مذاهب شتى فى آرائهم وتعليقاتهم .

إن ثمانى وثلاثين معركة تخوضها دولة الإسلام فى أقل من عشر سنوات فى عصر الرسول ، سبع وعشرون منها بقيادته ﷺ[1] تدعو كل مفكر إلى تعميق الفكرة وإجادة التأمل .

هل تستطيع دولة ما أن تقوم بحروب عدوانية بمعدل أربع معارك فى العام الواحد ؟ لن يتحقق هذا إلا إذا توفرت لها طاقات بشرية ومادية ضخمة، ثم رغبة شديدة فى الاستيلاء والتسلط ، ثم تاريخ طويل فى خوض هذه الحروب ومعالجتها ، ثم تكون حصيلة هذه المعارك أن تلتهم هذه الدولة المحاربة بلاداً كثيرة تضمها إليها وتنداح بها مساحتها وتتسع حدودها .

فهل توفر لدولة الإسلام من أول الأمر هذه الطاقات المادية والبشرية ؟ هل كانت تسيرها رغبة شديدة فى الاستيلاء والتسلط ؟ هل كان لها تاريخ فى خوض المعارك والحروب ؟ هل التهمت بلاداً انداحت بها مساحتها واتسعت حدودها ؟

التاريخ نفسه يشهد بأن شيئاً من هذا لم يحدث ، وهذا دليل حاسم على أن دولة الإسلام لم تكن دولة عدوانية تخوض معاركها للقهر والاستيلاء ،

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن عدد المعارك الأخرى عدا الغزوات سبع والعشرين هو سبع وأربعون سرية (طبقات بن سعد جـ ٢ ص ٦٠٥ دار صادر بيروت) .

وإنما كانت ترفع فى يدها مصباح الهدى والضياء ، ولا تشهر سلاح البغى والاعتداء ، والذى أرغمها على خوض هذه المعارك الكثيرة فى السنوات القليلة محافظتها على مصباح الهدى أن يخبو ضوؤه أو يتحطم زجاجه ، حتى يستطيع السارون فى دجى الليـــل أن يتبعوا مسار الشعاع فى ضوء هذا المصباح .

لقد أصاب فقهاؤنا كبد الحقيقة عندما قسموا العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب ، وكلما تعمق فقيه فى فهم سياسة الرسول ﷺ جاء بتعبير مشابه لهذا التعبير ، ولذلك زخرت كتب الفقهاء بتعبيرات كثيرة تقابل فيها دولة الإسلام بدولة الكفر ودار الإسلام بدار البغى ودار الإسلام بدار العدوان ، فلا أمان ولا إيمان ولا عدل ولا إستقرار إلا فى دار الإسلام الذى تطبق فى الواقع سياسة الإسلام .

لقد عنى فقهاؤنا بوضع الضوابط القانونية بين دار الإسلام ودار الحرب وكانت هذه الضوابط صمامات الأمان حتى لا تتطور الأحداث إلى مظالم بالغة أو انتقامات مروعة ، ولنعرض هنا أمثلة من هذه الضوابط .

(ا) إذا حورب العدو لم يحرقوا بالنار ، لما رواه أبو داود وسعيد : قال ﷺ « إذا أخذتم عدوا فاقتلوه ولا تحرقوه فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار » .

(ب) لا تفتح على الأعداء عيون الماء ليغرقوا ، إذا تضمن ذلك إتلاف النساء والذرية الذين يحرم إتلافهم قصداً .

(ج) لا يغرق نخل ولا تعقر شاة ولا دابة إلا لضرورة .

(د) من دخل إلى أرض العـــدو بأمان لم يخنهم فى مالهم ولم يعاملهم بالربا .

(ه) من دخل دار الإسلام بغير أمان وادعى أنه رسول أو تأخر معه

بمتاع ، قبل منه ولم يجز التعرض له لقول النبي ﷺ لرسول مسيلمة : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما » .

(و) إذا أودع المستأمن مسلماً وأقرضه إياه ثم عاد إلى دار الحرب بقي الأمان في ماله ويجب أن يبعثه إليه إن طلبه[1] .

(ز) إذا خرج قوم من أهل الحرب مستأمنين لم يعرض لهم فيما كان جرى بينهم في دار الحرب من المداينات ، لأنهم بالدخول بأمان ما صاروا من أهل دارنا ، وقد كانت المعاملة منهم حين لم يكونوا تحت يد الإمام ، فلا يسمع الإمام الخصومة في شيء من ذلك إلا أن يلتزموا حكم الإسلام ، وذلك بعقد الذمة[2] .

الذميون والمستأمنون : ومادام الحديث قد وصل بنا إلى هذا الموضوع فينبغي أن نلقي عليه ضوءاً أكثر كشفاً ، فقد نزل الوحي في شأن المستأمنين مخاطباً محمد ﷺ بإعطاء الجوار والأمان إلى كل من يريد من أهل الحرب أن يدخل إلى دار الإسلام : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لايعلمون[3] » وقد صدع ﷺ بالأمر والتزم بالوحي .

وتظهر حكمة الرسول وحزمه في سياسته هنا عندما نلقي نظرة على سورة براءة التي نزلت متضمنة آية الجوار والأمان للمستأمنين ، فإنها نزلت ترفض من أول الأمر أن تتجه عواطف المسلمين بالرحمة نحو المشركين ، وتعلن البراءة من هؤلاء الناس الذين ديدنهم نكث العهود وطبيعتهم نقض المواثيق . ولاشك أن المسلمين في هذا الجو المشحون بالنقمة على المشركين تتحرك عواطفهم

---

(١) ابن قدامة ، المغني ج ٧ ص ٥٠٢ وما بعدها .

(٢) السرخسي ، المبسوط ج ١٠ ص ٩٣ .

(٣) التوبة ، آية : ٦

فى ثورة عليهم ويتميزون غيظاً منهم ، فقد تبرأ الله ورسوله منهم ، وكشف القرآن على الملأ ما تضمر نفوسهم من شرو روما يبيتون من غدر ، فهل يستطيع الرسول ﷺ أن يسوس هذه النفوس الثائرة وأن يتحكم فى هذه التيارات المزمجرة ، وأن يوجد التوازن والاعتدال فى مثل هذه الحال ، إذا ما حل بينهم مشركون بحجة طلب الجوار والأمان ؟ نعم ، فلم يرو واحد حتى من الذين يزورون الأحاديث على رسول الله ﷺ أن أحداً من المسلمين فى عهدم قد مس بسوء مشركا من المشركين الذين قد حلوا بالجوار والأمان بينهم . إن عقد الأمان والجوار له قدسيته فى حس المسلمين ، بل إن أى عقد أو عهد له قدسيته فى حس المسلمين ، لارتباط ذلك بالإيمان حيث يتضح لهم ذلك من قول الرسول ﷺ : آية المنافق ثلاث : « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا اؤتمن خان » . فكيف يقدم مسلم ما يحس بهذه القدسية على نقض عقد أو الغدر بعهد ؟ إن هذا ديدن المشركين أو المنافقين .

أما الذميون وعقد الذمة فقد كانت سياسة الرسول ﷺ في هذا المجال أن أى يهودى أو نصرانى يعيش بين المسلمين دون أن يضمر لهم شراً يعتبر فى ذمة المسلمين ، أى هم مسئولون عنه ، مسئولون عن أي شيء له مسئولية كاملة ، وله أن يتمتع بحريته الكاملة من الناحية الدينية ، وفوق ذلك له وعليه مثل ما للمسلمين وعليهم من الحقوق والواجبات الإنسانية العامة من المأكل والملبس والتعليم والتطبيب ومراعاة قواعد الاجتماع ومبادىء الأخلاق ونظام الدولة « لهم مالنا وعليهم ما علينا » ويضاف إلى اليهود والنصارى فى ذلك المجوس ، حيث شملتهم سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وطبقا لهذه السياسة النبوية الحكيمة أخذ موضوع الذميين والمستأمنين فى الفقه الاسلامى نظامه التشريعى المتكامل وشكله القانونى المنظم ، حتى إن القاضى يستطيع أن يجد الحكم فى أية حادثة من الحوادث التي قد تقع بل كانت تقع غالبا بين دار الإسلام ودار الحرب ، فإن فقهاء المسلمين قد تعرضوا

لكل شيء بالذكر والتفصيل والتحليل ، وقد سبق أن سقنا بعض الأمثلة على ذلك ، ونسوق هنا كذلك هذا المثل : « إذا تزوجت الحربية المستأمنة مسلما أو ذميا فقد توطنت وصارت ذمية ، فإن زواجها دليل على رضاها بالتزام حكم الإسلام ، والالتزام قد يكون بالنص وقد يكون بالدلالة[1] » وبهذا النظام القانونى المتكامل استوعبت دار الإسلام أعداد كبيرة تبلغ الملايين [2] من رعايا دار الحرب ، بل تحول الكثير منهم إلى الإسلام بعد أن أحس بالعدل الشامل فى وطنه وشعر بالأمان الحقيقى فى ظله .

ولم يعرف الغرب إلى الآن مثل هذا النظام القانونى ، بل لم يعرفه قانون ولا نظام أى بلد متحضر حتى يومنا هذا ، إلا أن محاولة من روسو فى القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية بقليل ، قد أبدت فكرة جديدة على مجتمعه فى كتابه العقد الاجتماعى (Le pacte sociol) وتعطى هذه الفكرة وضعا قانونيا وسياسيا خاصا للمجتمع ، إذ أن الصلة بين أفراده ليست قائمة دون أساس قانونى وسياسى ، فكل فرد من أفراد المجتمع بقبوله العيش فيه كأنه عقد مع الآخرين عقدا بقبول نظامه وتقاليده ، وأصبح له الرأى الكامل فى تقويمه وتطويره إلى ماهو أفضل . ولكن هذه الفكرة تصور الصلة على أنها عقد ضمنى ، وهذا العقد الضمنى إنما هو خاص بالمواطنين ، فليس للأجانب الذين يدخلون هذه المجتمعات نصيب فى هذه الفكرة ، والعقد الضمنى ليس عقدا حقيقا ولكنه عقد خيالى لانستطيع أن نرتب عليه آثاراً قانونية يلتزم القضاء بمراعاتها ، كما أن حبس هذه الفكرة فى حدود ضيقة وهى حدود المواطنين لا غيرهم يجعلها فكرة تعانى من عيوب النقص والعقم ، ولعل روسو اطلع على شيء من الحضارة الإسلامية أو التقط بمسامعه بعض عبارات الاستحسان للنظم القانونية فى الإسلام ، ولا سيما أن المفكرين

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) أبو الأعلى المودودى ، نظرية الإسلام وهديه ص ٣٠٢ .

الغربيين فى هذا العصر بدأوا يتطاعون إلي نظام جديد ينشلهم مما هم فيه من ظلم وظلام ، فدفعه هذا إلى التفكير الجدى فى مجال المجتمع وسياسته وقيادته ، فكانت هذه الفكرة الناقصة العقيمة ومع نقصها وعقمها كانت فى وقتها اختراعا جديدا وخطيرا فى مجال السياسة عرض صاحبه للطرد والتشريد.

الجنسية والقومية :ـ

ونجد أنفسنا هنا مطالبين أن نلق ضوءا كاشفا على موضوع الجنسية والقومية ، والجنسية معناها الانتساب إلى جنس ، والقومية معناها الانتساب إلى قوم ، والقوم مجموعة من الناس تشمل عدة أجناس فهل ياترى تناولت سياسة الرسول ﷺ هذا الموضوع بشيء من التوجيه ؟

إن الإلحاح على عواطف الناس بأية وسيلة من الوسائل لتتقوقع حول مفهومات ضيقة من العرق أو اللون أو الجنس ، يؤدى بهم إلى نتائج خطيرة لها آثار سيئة على كيانهم ومصيرهم ، من هذه النتائج :

١ ـ ضيق الأفق ؛ وعدم فهم الحياة على أسسها الصحيحة .

٢ ـ وجود فجوات بعيدة بين المجموعات البشرية فى مشاعرها وأحاسيسها وأهدافها .

٣ ـ إهدار القيم الإنسانية وعدم الاهتمام بأى مبدأ ينادى بتكريم الإنسان .

ولقد كانت الآثار السيئة لهذه النتائج آثاراً مزعجة أقضت مضجع البشرية ومازالت ، فإن الحروب التى أكلت الملايين فى الماضى والحاضر وتنذر بشر مستطير فى المستقبل إنما كانت وستكون من جراء الأفق الضيق والفجوات البعيدة بين مشاعر المجموعات البشرية وإهدار القيم الإنسانية .

ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى إنها العصبية للمعانى الأرضية المظلمة التى لا ترتبط بمعانى السماء ولا تستنير بها ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن العصبية لشيء من هذه المعانى التى تعود بالشر المستطير على المسلمين :

« ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية » ، ونفى أن يكون هناك فضل لذى لون على لون آخر ولا لمنتسب لجنس على منتسب لجنس آخر : « لا فضل لعربى على عجمى ولعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا أصفر إلا بالتقوى » .

وموضوع الجنسيات والقوميات هو الذى أوقع العالم الإسلامي فى شرك لا أدرى متى يستطيع الفكاك منه ، فليست العنصرية البغيضة إلا الجنسية أو القومية ، والعالم الإسلامى وقع من حيث لا يدرى أو يدرى فى خطأ بالغ أبعده عن روح الإسلام بعداً سحيقا .

فإن نظرية الجنسية والقومية أو نظام الجنسية والقومية، إنما نشأ وترعرع فى بلاد الغرب ، حيث لا رابطة قوية من دين صحيح تجمعهم وتضعف روابط الأرض والعرق واللون فى نفوسهم ، فنى روما القديمة وفى بلاد اليونان لا يعتبر الأجنبي الذى دخل البلد المجاور ولو كان مسالما إلا رقيقاً أو عدواً ، وحتى فى القرون الوسطى حتى أوائل القرن الثامن عشر ظل هذا النظام معمولا به ولم يكن من الممكن أن تخفف من حدته شيئاً ما إلا المعاهدات التى تعقد بين هذه البلاد التى يجاور بعضها بعضاً ويدين معظمها بدين واحد[1] ثم وضعت قوانين الجنسية الحديثة فى البلاد الغربية كلها متشبعة بهذه الروح ، وإن خففت من غلواء نظرتها للأجانب بعض الشىء ، إلا أن هـــذه الروح تسيطر سيطرة كاملة على سلوك كل بلد ومواطنيه بالنسبة للبلد الآخر ومواطنيه .

ولم تــكن الجنسية يوماً ما ، قبل أن يدهمنا الاستعمار ، موجودة فى دار الإسلام لا كنظرية ولا كنظام ، ولم تصبح متسلطة عليها هذا التسلط إلا بعد أن تسلط علينا الغرب .

---

(١) باتيفول القانون الدولى الخاص

H. Batiffol, Droit international privé, pp.lo et s.1970 Paris.

لقد كان المسلم يتجول في البلاد الإسلامية ، وينتقل من بلد إلى بلد ، ويتولى أحياناً مناصب هامة في البلاد التي يذهب إليها ، ولا يشعر أنه في بلد أجنبي عن البلد الذي نشأ فيه ، بل إن الذمي له حق التجول والانتقال من بلد إلى بلد في دار الإسلام دون عائق ما ودون حاجة إلى إذن أو تصريح ، لأن معه التصريح العام بالجوار والأمان ، إلا أن عيون المسلمين لا بد أن تكون ساهرة عليه ، فربما كان جاسوساً ، فقد روى أبو داود عن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه ثم انسل ، فقال النبي ﷺ : « اطلبوه فاقتلوه . قال فسبقتهم إليه فقتلته وأخذت سلبه فنفلني إياه » ، فقد ظهرت مهمة هذا المستأمن بانسلاله خفية من بين الصحابة ، وهي التجسس عليهم .

وحكم القتل كذلك بالنسبة للذي إذا ظهر أن مهمته الجاسوسية ، وما ذلك إلا لأنه نقض عقد الذمة ، فعن أبي داود عن حارثة بن مضرّب عن فرات ابن حيان : أن رسول الله ﷺ أمر بقتله ، وكان عيناً لأبي سفيان ، وكان حليفاً لرجل من الأنصار فمر بحلقة من الأنصار فقال : إني مسلم. فقال رسول الله ﷺ : إن منكم رجالا نكلهم إلى إيمانهم ، منهم فرات بن حيان» ، وندرك من هذا الحديث أن المسلم موكول لإسلامه وإيمانه فإن ظهر عليه أنه جاسوس فيكفي تعزيره أو تنبيهه ولا يجوز قتله ، فإنها حالة ضعف ربما تعترى نفسية المسلم ثم يفيق في الحال من سكرته ولا يعود مرة أخرى إلى هذه الجريمة الشنعاء ، وقد اعترى حاطب بن أبي بلتعة[1] مثل هذه الحال ، وكاد على بن أبي طالب رضى الله عنه أن يقتله ، فمنعه الرسول ﷺ من ذلك وقد كان هذا درساً قاسياً أيقظ نفسه ، ولم تغره جريمة الجاسوسية بالوقوع فيها بعد ذلك .

وفرات بن حيان بعد أن أسلم وكله الرسول ﷺ إلى إسلامه وإيمانه ،

---

(١) أحد الصحابة الذين شهدوا بدرا .

فإن كان صادقاً فلن يعود إلى هذه الجريمة الشنعاء ، وإن كاذباً فسيظهر أمره بين مجتمع المسلمين .

ومجتمع المسلمين ليس مجتمع المآذن المشرعة فحسب ، ولكنه المجتمع الذى ينبض بشعائر الإسلام كذلك فى كل لحظة من لحظات حياته اليومية ، فأى سلوك شاذ يظهر فى الحال على صفحة أو على مسرح هذا المجتمع الحى النابض بشعائر الإسلام ، فالدورة اليومية فيه كالدورة الدموية ، إذا ظهرت أية جرثومة فى الدم تسبب ارتفاعاً في درجة حرارة الجسم مما ينذر بخطورة هناك ، وبتحليل الدم تكتشف فى الحال هذه الجرثومة ، وكذلك الجاسوس جرثومة فى جسم المجتمع المسلم ، تنبه عنه الدورة اليومية من شعائر الإسلام بارتفاع درجة الانتباه عن سلوكه ثم يكشف عنه التحرى فى أمره .

ثم إن الذمى عضواً فى المجتمع المسلم من أول يوم ، وليس فى التشريع الإسلامى من شرط قضاء مدة معينة قصيرة أو طويلة قبل أن يصير عضواً فيه له ما للمسلم وعليه ما عليه .

أما قوانين الجنسية فمن شروطها التى لا أساس لها من منطق معقول أو مقبول أن يقضى من يقبل التجنس بجنسية بلد ما أن يمكث بهذه البلد مدة معينة قد تكون خمس سنوات وقد تكون عشراً وقد تكون أكثر ، ويشرط أن يقدم طلباً بالتجنس وأن يصادف هذا الطلب القبول على حسب حاجة البلد أو عدم حاجتها .

وإذا نظرنا فى موضوع الجنسيات والقوميات نظرة فاحصة فسنجد أن أساسها أساس واه لا يتحمل ما بنى عليه من أحكام ، فقد امتزجت الدماء والعروق والأجناس ، والتحرك البشرى أو الهجرات البشرية لم تنقطع منذ فجر التاريخ ، فأى جنس يعتبر جنساً خالصاً ؟ وأى قوم يجمع بينهم التشابه التام والسمة الواحدة ؟ وأى عرق من العروق يضرب جذوره فى أعماق الزمن ولم يمتزج بعرق آخر من عروق البشرية ؟ وأى سلالة من السلالات انحدرت

من إنسان وظلت في نسله ذكوراً وإناثاً لم تمتزج بنسل آخر ولم تلتق بها سلالة أخرى انحدرت من إنسان آخر ؟

البعثات الدبلوماسية :

لم يبدأ الرسول ﷺ في إرسال بعثات (ديبلوماسية) إلى بلاد العالم إلا في السنة السادسة من الهجرة ، ونستسمح القارىء في استعمال هذه الكلمة الأجنبية فهي التي تجري على اللسان وتدرك معناها الأذهان اليوم ، وقد عرفنا أن معناها استعمال الحكمة في تحسين الصلات والعلاقات بين الدول وإطلاع كل منها الأخرى على ما عندها من خير حتى تسعى للحصول عليه لأنها تحتاج إليه .

ولقد كان رسول الله ﷺ من بالغ الحكمة وسداد الرأى أنه لم يبدأ بإرسال سفرائه وكتبه بعد إقامة دولة الإسلام إلى جميع أنحاء العالم يومئذ إلا في السنة السادسة من الهجرة بعد أن عقد معاهدة الحديبية مع قريش ، فقد أصبح الوقت مناسباً لتعريفهم بمنهجها ودفعهم إلى الاعتراف به وبها .

وخمس سنوات من عمر الدولة قضتها في صراع عنيف مع قوى الباطل والشرك دون أن يصل إلى مسامع العالم خبر اعتداء منها على أحد أو نشرها لباطل تتبناه ، كفيلة بأن تمهد الطريق أمام هؤلاء السفراء وهذه الكتب .

ولكن ليس كل سفير يصلح لأى بلد ، ولا كل صيغة تناسب أى ملك أو حاكم . وهنا يتجلى لكل ذى عين مدى ما كان عليه رسول الله ﷺ من خبرة بمعادن الرجال حوله ومن حنكة في الإحساس بالظروف التي تحيط بكل رئيس أو ملك ، وقمة النجاح في سياسة دولة وزن رجالها بميزان دقيق ومتابعة التطور الذي يحدث في الدول الأخرى ووضع حكامها بالنسبة لهذا التطور .

لقد اختير لكل مكان السفير الذى يعرفه حق المعرفة ويعرف لغته وقومه، وإذا رأوه اعتبروه واحداً منهم ، لا يختلف عنهم فى سمته ولهجته وإن تميز بشرفه وسلوكه ومنهجه . ولقد حرر كل كتاب مراعياً ظروف ووضع كل رئيس أو ملك أرسل إليه .

ونعرض أسماء هؤلاء السفراء ومن أرسل إليهم من الملوك والرؤساء :

فقد بعث دحية بن خليفة الكلبي سفيراً إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان ، وبعث سليط بن عمرو ، أحد بنى عامر بن لؤى ، إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن على الحنفيين ملكى اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام ، وبعث المهاجر بن أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

وهذا الاختيار الموفق جاء بعد أن مهد له الرسول ﷺ فى حكمة وكياسة لا يضارعان ، إذ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية فقال : أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم ، فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ قال : دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهته وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التى بعث إليها[1] .

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٥٤ .

وبعد هذا التمهيد الذى استل من النفوس أسباب الاختلاف حول اختيار الرسول ﷺ لسفرائه بحسب قدراتهم الخاصة وحسب ظروف البلاد التى أرسلوا إليها ووضع الحكام فيها كان أصحاب هذه القدرات على أتم استعداد للذهاب إلى حيث يقرر الرسول ﷺ،ولم يحدث أى اختلاف حول اختيار السفير ولا تحديد البلد الذى أرسل إليه .

وإذاً فلتحرر الكتب التى سيحملها هؤلاء السفراء إلى الملوك ، فكيف حررت ؟ وما هو نص كل كتاب من هذه الكتب ؟ وهل هناك نظرة خاصة لكل كتاب منها ؟ لنستعرض هذه الكتب كتاباً كتاباً :

— نص الكتاب إلى هرقل :

بسم الله الرحمن الرحيم . . من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم الأربسيين : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وهذا الكتاب يعلن من أول الأمر أن الرسول ﷺ ماهو إلا عبد الله ، لأن ألوهية عيسى عليه السلام قد سببت مشكلة كبيرة فى عقيدتهم النصرانية تهدد بفتنة خطيرة ، وعبوديته هي الحقيقة التى تحل هذه المشكلة وتحول دون وقوع فتنة ، وقد ختم الكتاب بالآية الكريمة التى تناديهم إلى الاستجابة بكلمة الحقيقة التى هي الحل لمشكلاتهم ، ولم يكن فى تضاعيف الكتاب إلا عرض الإسلام دون تهديد بحرب أو إنذار بعدوان .

— نص الكتاب إلى كسرى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم الفرس ، سلام على من اتبع الهدى وشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله تعالى : فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين : وإن تسلم تسلم وإلا فإن عليك إثم المجوس » .

وهذا الكتاب يعلن من أول الأمر كذلك عبودية الرسول ﷺ يعلن من وراء ذلك ألوهية حكام الفرس الذين ليسوا برسل ولا أنبياء ، ثم توالت كلمات الكتاب بعد ذلك تبين فى إيجاز رسالة الحق التى أتى بها الرسول، ومنهجه في الدعوة إلى ربه ، ولم يكن هنا أى تصريح أو تعريض بالحرب أو العدوان إن رفض كسرى هذه الدعوة .

— نص الكتاب إلى النجاشى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة ، فإنى أحمد الله تعالى إليك ، الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى فخلقه الله تعالى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى » .

وهذا الكتاب مع أنه إلى ملك نصرانى إلا أن صيغته قد اختلفت اختلافاً كثيراً عما جاء فى كتاب هرقل وهو ملك نصرانى كذلك ، وما ذلك إلا لأن العقيدة عند نصارى الحبشة أقرب إلى الحق ، وتكاد تشبه بالنسبة لعيسى ومريم ما قرره الإسلام، ويبدو أن أصحاب الحق فى عقيدة النصرانية قد تملكوا زمام الأمر فى الحبشة فكانت هذه الصيغة التى تنم عن أسلوب بالتعاطف مع ملك الحبشة ومن ساروا وراءه وجاهدوا معه من قبل .

— نص الكتاب إلى المقوقس :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط، «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وهذا الكتاب يتحد فى نصه وصيغته مع الكتاب الذى أرسل إلى هرقل ملك الروم ، وما ذلك إلا لأن الروم كانوا قد احتلوا مصر من قبل الميلاد وظلوا فيها ما يقرب من سبعة قرون حتى دخول الإسلام ، وعندما اعتنقوا النصرانية اعتنقوها على الصورة المشوهة التى يحلو لهم أن تكون عليها، لا على الصورة الحقيقية التى جاءت بها ، ونشروا عقيدتهم المشوهة فى مصر بعد فظائع مروعة يقف التاريخ أمامها عاجزاً عن الوصف . ولما كانت الروم ومصر أو ملك مصر متحدين فى الوضع والظروف والعقيدة كان الكتاب لكل منها صورة من الآخر .

— نص الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى(١) سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد ألا إله إلا هو ، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح إنما ينصح نفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع

---

(١) هذا نص الخطاب الثانى الذى كان رداً على اجابة بن ساوى بعد وصول الخطاب الأول اليه الذي لم يعثر عليه ، انظر محمد أبو زهرة فى مؤلفه خاتم النبيين حـ ٣ ص ١٤٠ .

أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل ، وإنك مهما تصلح لا نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية» وهذا الكتاب الذى لا يعتبر الكتاب الاول إلى ابن ساوى يبين بوضوح أنه قد استجاب لدعوة الرسول ﷺ من أول الأمر وأنه أرسل يسأل عن أشياء تتصل بحكمه بعد أن تحول إلى الإسلام.

ـ نص الكتاب إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فانى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن تسلما وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى يحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملكيكما.

وهذا الكتاب يتضمن بل يصرح فى وضوح أن عدم الاستجابة للإسلام معناه الحرب وليس هناك بديل ، فإما الإسلام وإما الحرب التى تعرف ابنى الجلندى نتيجة رفضها للدخول فى دعوة الرسول ﷺ ، فلماذا كان هذا التهديد والوعيد ؟

أهناك سبب يفسر لنا ذلك ؟ نعم ، هناك سبب سنقوم بشرحه عند الحديث عن « القارة الإسلامية » بعد قليل.

ـ نص الكتاب الى هوذة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، اعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم وأجعل لك ماتحت يدك»[1]

---

(١) انظر فى نصوص الكتب محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين حـ ٣ ص

وهذا الكتاب يتضمن إنذاراً بالحرب عند الرفض وعدم الدخول فى الإسلام ، ولكن دون تصريح كسابقه ، ولكن لماذا التهديد بالحرب ؟ هذا ماسنتناوله عند حديثنا عن القارة الإسلامية ، إلا أننا ننبه من الآن إلى أن نصوص الكتب التى مرت جميعا لم تتضمن أى تهديد بحرب إلا فى هذين الكتابين فحسب ، وقد عرض رسول الله ﷺ منهج الحق ودعوة الخير للبشرية جمعاء في كل كتاب من كتبه دون استثناء .

ولم يعرف العالم قبل الإسلام ولا بعده مثل هذه « الديبلوماسية » الرائعة ، حيث يعرض قائد دولة منهج الحق والخير الذى يضمن سعادة البشرية بوساطة سفرائه وكتبه ، ويدلهم على طريق النجاة مما ترد وا فيه من حياة مليئة بالشقاء والتعاسة دون أن يهددهم بحرب أو ينذرهم بعدوان .

وقد كانت العلاقات بين الدول حتى بعد الإسلام بقرون ، قائمة على أساس من العداء الشديد والتربص الدائم للتخريب والتدمير ثم الاستيلاء والتحكم ، وظل ذلك حتى القرن الثامن عشر ، حيث بدأت الصناعة تنتشر فى بلاد الغرب ويصبح للتجارة تبعا ذلك وضع خطير يتطلب وضع سياسة جديدة بين هذه الدول يتحقق بسببها شيء من الأمان المنشود لهذا التطور الجديد فى ميدان الصناعة والتجارة ، وإلا رجعت هذه الدول القهقرى إلى عهد القرون الوسطى أو ما قبله من وحشية تفوق فى كثير من الأحيان فظائع الوحوش فى الغابات .

ويرى أحد الغربيين أن العرف الديبلوماسى ابتدأ فى اوائل القرون الوسطى عقب حرب المائة (١٣٣٧ – ١٤٥٣) ، ولم يكن هناك عرف ديبلوماسى قبل هذا الوقت (١).

= ٢٩١ وما بعدها ، وعماد الدين يحي بن ابى بكر العامرى ، بهجة المحافل حـ ١ ص ٣٣٦ .

(١) لويس دوللو – التاريخ الديبلوماسى ، ترجمة الدكتور سموحى ص ١١.

وعلاقة الوحشية المعروفة قديما وحديثا بين الدول هى التى حركت الروم فى السنة الثامنة من الهجرة للهجوم على الدولة الإسلامية والقضاء عليها، ولما كان الرسول ﷺ يرقب تحركات الدول من حوله مهما بعدت عنه، فقد وصلت إليه أخبار موثوق فيها أن هناك استعدادات ضخمة على تخوم الشام للتوجه إلى المدينة وتدميرها على من فيها، ولم ينتظر الرسول ﷺ أن تأتيه جحافل الروم بعد أن تستعد استعدادها الكامل، بل فاجأها قبل أن تتم استعدادها. وذلك فى مؤته ثم تبوك، ثم جهز جيشا ثالثا بقيادة أسامة ابن زيد قبل موته بقليل، وكان لهذه الخطة الحكيمة من مراقبة تحركات العدو ومباغتته وإفشال خططه بهذه الغزوات المتلاحقة ماجنب المسلمين شرا مستطيرا لا يعلم عاقبته الا الله (١).

عقد المعاهدات:

وإذا كانت الدولة قد قامت فى الواقع لتحمل منهج الحق والخير والسعادة للبشرية جمعاء، فإنها لاتكاد تحس ببادرة سلم بينها وبين من يناصبونها العداء حتى تبادر دون تباطؤ إلى اقتناصها لتنشر السلم والأمان بين الناس، وتجنبهم ويلات الحروب المدمرة والخراب المروع، وهذا مارسمه الرسول ﷺ بسياسته الحكيمة على هامة الزمن، عندما عقد صلح الحديبية على الرغم من المعارضات الشديدة من أصحابه.

إن قريشا قد أحست أنها ارتكبت خطأ كبير بمنعها الرسول ﷺ وأصحابه من زيارة البيت واعتقالها السفير الذى أرسل إليها فى هذا الأمر، حيث إن المسلمين قد عقدوا العزم فى بيعة الرضوان للانتصاف لسفيرها الذى أشيع أنه قتل، ولذلك مالت إلى مصالحة الرسول ﷺ.

قال ابن اسحاق: قال الزهرى: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو،

---

(١) هذه شذرات نسوقها فى هذا الباب عن سياسة الرسول ﷺ العسكرية والحق أن سياسته العسكرية تحتاج إلى بحث مستقل قد صح عزمنا على إخراجه إن شاء الله

أخا بنى عامر بن لؤى ، إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا (أى يرجع عن زيارة البيت) فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح .(١)

وعلى الرغم من أن قريشا تريد الصلح وتسعى إليه إلا أن العنجهية تركبها ، فهى تريد أن تفرض شروطا على رسول الله ﷺ والمسلمين معه، ومثل هذا الموقف الشاذ من قريش لايمكن أن يقبله أى حاكم أمة ولا أى قائد جيش ، ولكنه حاكم خير الأمم وقائد أشرف الجيوش ، رسول الله ﷺ ، هو الذى قبل هذا الموقف الشاذ من قريش ، فهو منطق مع منهج الحق الذى جاء به للناس،وما كاد يحس بيادرة الصلح من قريش حتى بذل جهده لاقتناصها ولم يرد أن تفلت منه هذه الفرصة على الإطلاق .

وتتبع الطريقة التى صيغت بها هذه المعاهدة والأحداث التى مرت قبل وأثناء عقدها يدل على أن الرسول ﷺ قد بلغ من الحنكة السياسية وتقدير الظروف المحيطة بالأعداء وما يدور فى نفوسهم من أفكار وكذلك نفسية المسلمين ومدى تقبلها للأمر وموافقتها على بنود المعاهدة مع إجحافها بحقوقهم، مبلغا لايستطيع أن يدنو منه إلا من اقتدى به واهتدى بهديه وسار سيرته ، ويظهر ذلك من الجو الذى تم فيه عقد هذه المعاهدة :

قال ابن اسحاق : قال الزهرى : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : ياأبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ؟قال: بلى، قال : فعلام نعطى الدنية (الوضع الخسيس) فى ديننا ؟ قال أبو بكر : إلزم غرزه (أمره) فإنى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى الرسول (ص) فقال : يارسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : بلى،

---

(١) على هامش السيرة ج٣ ص ٣٣١ .

قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره (لن أحيد عن منهج الحق الذى جئت به) ولن يضيعنى ..

ويستمر ابن اسحاق فى سرد الأحداث فيقول : ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . قال : فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال الرسول ﷺ : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، قال سهيل : لوشهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة (هدنة يكف فيها كل من الطرفين نفسه) ، وأنه لا إسلال ولا إغلال (لا سرقة ولا خيانة) ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعقدهم دخل فيه ... وأن محمداً يرجع عامه هذا فلا يدخل مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجت قريش عن مكة ودخلها محمد وأصحابه فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، لا يدخلونها بعدها ... فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يوسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ (وكان المسلمون قد خرجوا عندما خرجوا وهم لا يشكون فى أنهم داخلون مكة لرؤيا الرسول ﷺ بزيارة الكعبة) فلما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله ﷺ فى نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فلما رأى سهيل أبا جندل (ابنه) قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ثم قال : يامحمد قد لجت (تمت) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا قال : صدقت . فجعل ينتره،

(يجذب ابنه جذباً شديداً) ، ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته يامعشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى مابهم ، فقال رسول الله ﷺ أيا أبا جندل إصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم ، قال : فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر أبا جندل فانما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب .قال: ويدنى قائم السيف منه . قال : يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه . قال :فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية. فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين(١) .

لا شك أن عقد معاهدة كهذه بين أعصاب متوترة وعواطف ثائرة وأحداث مفاجئة تزيد الأعصاب توتراً والعواطف ثورة ، وصلف زائدمن قبل المشركين وهم المحتاجون للصلح والساعون إليه يتطلب نموذجاً فريداً من الشخصيات التي تدرس الموقف من جميع أبعاده ، وتستطيع التحكم في تيار العواطف الهادر ، وتركز على الأصول في التعاقد ، وتتنازل عما حول هذه الأصول من أمور فرعية لا يقبلها العدو ، ويقــــدر النتائج لكل خطوة يخطوها بحساب دقيق .

ولقد شعر المشركون بارتياح ، وظنوا أنهم قد انتصروا على الرسول والمسلمين بعد عقد هذه المعاهدة،وعلى العكس من ذلك شعر المسلمون بكثير من الأسى والحزن وظنوا أنهم قد تنازلوا عن الكثير الذى لا يجب التنازل عنه للمشركين ، وهذه هي عبقرية عقد المعاهدات ، حيث يشعر العدو أنه قد انتصر بإملاء شروطه في التعاقد وكان سيد الموقف ، على حين أن النتائج القريبة والبعيدة لهذا التعاقد تنذر بأفول نجمه وزوال أمره :

---

(١) المرجع السابق .

على الرغم من الظروف القاسية التي تم فيها عقد معاهدة الحديبية ، فقد كانت فتحا مبينا لرسول الله ﷺ وللمسلمين ، وهنأه الله بذلك أثناء رجوعه إلى مكة بعد التعاقد بإنزال سورة الفتح عليه ، وإنزال السكينة فى قلوب المسلمين ، وقد استحق الرسول ﷺ من ربه هذا التكريم العظيم لما تحمل فى هذا الأمر من جهد سياسى حكيم .

سياسة الانتصار :

وكان من النتائج الباهرة لمعاهدة الحديبية فتح مكة وسقوط أكبر معاقل الشرك فى يد المسلمين ، ولكن كيف تم هذا الأمر الخارق ؟ وكيف كانت سياسة الرسول فى هذا الانتصار الساحق ؟

لم تستطع قريش أن تتحكم فى ميولها العدوانية ، ولم تستطع القبائل الموالية لها أن تصبر طويلا دون أن تعكر على الناس صفوهم وتخل بأمنهم ، فنقضت قريش عهدها وأعانت بعض القبائل الموالية لقتل المسلمين ظلماً وعدواناً ، ثم حاولت أن تعتذر ولكن بعد فوات الأوان ، ولم يمض بعد على معاهدة الصلح والهدنة سنتان .

إن تاريخ قريش مع الرسول ﷺ والمسلمين تاريخ ملىء بالمظالم الشنعاء وحافل بالذكريات السوداء ، وإن الثأر والانتقام يدمدمان فى نفوس المسلمين نهار مساء ، وهل ينسى المسلمون العذاب والنكال والحرب والقتال التى مارستها معهم من يوم مبعث الرسول ﷺ إلى يوم أن تحركوا إلى فتح مكة ؟

إن أية دولة فى القديم أو فى الحديث لا تستطيع أن تكبح جماح نفسها عندما تنتصر على دولة أخرى ناصبتها العداء، فإن جنودها يجوسون خلال ديارها ويتبرون ما علوا تتبيراً ، ولم يحدث أن قائد جيش أو حاكم دولة استطاع أن يملك زمام الأمر وقد أخذت نشوة الانتصار بالرؤوس وأصبح الانتقام المشئوم سيد الموقف يتحكم ما يشاء فى الأموال والنفوس .

وتأتى سياسة الرسول ﷺ كضوء القمر الساطع فى وسط هذه الظلمات التى سادت العالم وغشيته بسحابة كثيفة من الكآبة يضاعف كثافتها هذا الانتقام الأسود من نفوس متوحشة لم تكن تعرف الرحمة ولا الإنسانية إليها سبيلا .

قال ابن هشام : إن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ وقد سمع سعد بن عبادة يقول عند فتح مكة : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة — : ما نأمن أن يكون له صولة فى قريش ، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها[1] .

بل إن رسول الله ﷺ لم يكتف بأن يقف بالمرصاد لميول الإنتقام التي تبدو فى كلمات يتفوه بها بعض جنوده فى مثل هذا الموقف ، إنه أعلن العفو العام عن قريش وهو واقف علي باب الكعبة بعد أن دانت مكة كلها له : « يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ » وتجيب قريش إجابة الخائف المذعور ، وكأنها تستجدى العطف والرحمة وتذكر بالنسب والأخوة : « أخ كريم وابن أخ كريم » فيقول لهم من قلبه : اذهبوا فأنتم الطلقاء » :

بل لم تنته سياسة الرسول ﷺ عند العفو العام ، إنه يأمر بأن تظل المهام العظيمة فى يد أصحابها ، فلا يسلب من أحد أمر هام كان قد عهد به إليه قبل فتح مكة ، فقد قام إليه على بن أبى طالب بعد أن جلس فى المسجد وألقى خطبة العفو العام ، وبيده مفتاح الكعبة ، فقال يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن أبى طلحة (وهو صاحب هذا الشرف من قبل) ، فدُعى له ، فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

القارة الإسلامية الأم :

وفى ضوء هذه الرحمة التى لم يعرف لها العالم مثيلا والتى يجب أن يسعد بها العالم كله كما سعدت قريش « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، نبحث موضوع القارة الإسلامية الأم ، فهل كان يدور فى ذهن الرسول ﷺ فكرة عن إقامة حدود آمنة حول الجزيرة العربية لتكون بمثابة قارة إسلامية يتحرك فيها الإسلام فى حرية . ؟

إن رسول الله ﷺ عندما بدأ فى إرسال بعثاته الدبلوماسية وكتبه إلى جميع ملوك وأمراء العالم فى عصره ، كان قد عقد العزم أن يقرر فى واقع الناس سياسة جديدة ليست قائمة على إهدار القيم الإنسانية ، وأن يعد لهذا العالم الذى حكم بقانون الغابات قرونا متطاولة ، مكانا آمنا ليتفيأ فيه ظلال الحرية والأمن من شاء ممن يعجبون بدعوة الحق التى جاء بها رسول الله ﷺ وأن يكون منطلقا آمناً جديدا تنطلق منه الدعوة إلى كل مكان فى هذا العالم شرقا وغرباً وشمالا وجنوبا ، فإن المدينة الدولة لم تسلم بحدودها غير الآمنة من هجمات العدو ، ولم تهدأ الحروب بين هذه الدولة وبين المتربصين بها فى الداخل والخارج على سواء ، وهذا الوضع يدعو إلى الدراسة العميقة وانتهاج سياسة تمليها الظروف الجديدة بعد توقيع معاهدة الصلح مع قريش :

أولا : دراسة أوضاع الدول على مستوى العالم كله ، وكيف يكون تبليغ منهج الحق إليه .

ثانيا : دراسة أوضاع الجزيرة العربية من جميع جوانبها وتحليل مناطق القوة والضعف فيها .

ثالثا : دراسة أوضاع القبائل التى تقطن الجزيرة وتحليل مواقفها بعد الأحداث التى مرت .

أما دراسة الأوضاع على النطاق الدولي فقد اقتضت سياسته إرسال البعثات

والكتب الى جميع الملوك والرؤساء مع دقة الاختيار لكل بعثة ومراعاة الصياغة في كل كتاب .

أما دراسة أوضاع الجزيرة من جميع جوانبها وتحليل مناطق القوة والضعف فيها ، فإن الوضع الجغرافى للجزيرة العربية يبين فى وضوح أنها تحد من جهات ثلاث بالماء ، فمن الشرق بالخليج الفارسى ومن الغرب بالبحر الأحمر ومن الجنوب بالمحيط الهندى ، أما جهة الشمال فتتصل بتخوم الشام التى تخضع لسلطان الروم ، وهذا يتطلب سياسة اليقظة الدائمة والتركيز على مناطق الضعف التى يمكن أن يؤتى من قبلها المسلمون .

أما دراسة أوضاع القبائل التى تقطن الجزيرة ، فإنها كما يلى : —

(أ) قبيلة قريش التى وهن العظم منها وأرهقتها الحروب المتوالية مع رسول الله ﷺ ، واضطرت إلى طلب الصلح منه ، وربما تنقض هذا الصلح وتقوم بعدوان لو أحست بعض العافية ، ولكنه سيكون كرقصة المذبوح والحركة الأخيرة لزهوق الروح .

ب — القبائل المشركة الأخرى فى وسط الجزيرة ، وليس لها من وزن إذا ما قورنت بقوة المسلمين وتفوق الأعداد عندهم ، ولاسيما بعد أن خاضوا عدة حروب مع قريش وغيرها من القبائل .

(ج) مملكة اليمامة ، ولها من القوة والتنظيم والاستعداد ما يدفع إلى تقدير الخطورة التى يمكن أن تصيب المسلمين عن طريقها .

(د) مملكة عمان ويسيطر عليها ملكان مشركان وهما أخوان ، وهي تنفذ فى شرق الجزيرة ، ولها اتصال بمملكة فارس ، ومن المحتمل أن تنفيذ أوامر ملوك فارس إذا ما أرادوا أن يوجهوا ضربة شديدة تنال من قوة المسلمين ودولتهم .

(هـ) قبائل اليهود ، وقد ظهر غدرهم ، وانكشفت خبيثتهم وأجليت قبائل

بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وذهب معظمهم إلى تخوم الشام ، ولكن بقيت خيبر فى شمال المدينة على بعد ١٥٠ كيلومترا تقريبا ، وقد استوعبت بعض اليهود من القبائل الثلاث التى أجليت ، ويتوقع المسلمون الغدر منهم يوماً بعد يوم للتنفيس عن طبيعتهم الخبيثة وللانتقام لإخوانهم وبنى جنسهم من يهود القبائل الثلاث .

(و) قبائل الشمال ، ولم يسبق أن اشتبكت مع المسلمين فى حروب ، ولا تنوى الاشتباك أو الوقوع فى معارك معهم إلا إذا اضطرت إلى ذلك بأوامر من حكام الروم ، إلا أنهم على كل حال أهل كتاب ويستطيعون أن يفهموا حقيقة المنهج الجديد .

(ز) مملكة البحرين ، ولها من الخطورة مثل ما لخطورة مملكة اليمامة ومملكة عمان .

(ح) مملكة اليمن وقبائل الجنوب حولها ، وتحتاج إلى نظرة خاصة لأن لها تاريخاً حضاريا يضرب بقدمه فى أعماق الزمن ، ولم يحدث أن أعلنت حربا أو وقعت فى اشتباك مع المسلمين ، ثم إن معظمهم نصارى .

وهذه الأوضاع تتطلب سياسة حكيمة تناسب أهميتها وتتبع فى حزم مواطن الخطورة فيها .

فأمر قريش الآن لا يقلق بال رسول الله ﷺ فقد عقدوا الصلح معه لمدة عشر سنين .

وأمر القبائل الأخرى فى وسط الجزيرة لا يستدعى جهوداً تذكر ، فإن هذه القبائل إذا أحست بجانب الرسول ﷺ يرجح سيقبلون عليه زرافات ووحدانا يطلبون جواره وولاءه .

وأمر مملكة عمان واليمامة والبحرين يحتاج إلى سياسة فيها الحزم والشدة والصرامة ، وهذا تفسير الكتب التى وجهت إلى ملوك هذه الممالك : فإما الإسلام وإما الحرب ، ولا ثالث لهما ، فإنها ممالك لا تعرف مبادىء الإنسانية ولا تحقق أى نوع من أنواع العيش الكريم للبشرية ، بل هى أوكار الشر

ومعاقل الدمار، ومأوى القراصنة فإذا ما سنحت لها الفرصة وتهيأت لها الأسباب انطلقت كالأعاصير تنشر الشر وتشيع الدمار بغير حساب .

وأمر قبائل اليهود يتطلب كذلك سياسة صارمة تقضى على البقية الباقية منهم فى خيبر ، ولذلك توجه الرسول ﷺ إليها فى السنة التى تلت توقيع المعاهدة مع قريش مباشرة ، ليصفى حسابه معها ، ويطهر الجزيرة كلها من هؤلاء اليهود .

وأمر قبائل الشمال والجنوب يتطلب سياسة أخرى تتدخل فيها عوامل المراقبة والصبر والإغراء بما فى منهج الحق من سعادة صادقة وحضارة سامقة.

* * *

وقد كانت سياسة الرسول ﷺ من الدقة والشمول بحيث جاءت السنة التاسعة الهجرية تحمل نتائج هـذه السياسة الحكيمة وتصدق نظرته البعيدة فى مستقبل هذه القارة الأم ، فقد جاء إليه ﷺ فى هذا العام خمسون وفداً(١) يمثلون القبائل والممالك فى جميع أنحاء الجزيرة من عمان والبحرين شرقا إلى البحر الأحمر غرباً ومن اليمن جنوبا إلى أيلة وكندة والقبائل القريبة من تخوم الشام شمالا ، حتى سمى هذا العام عام الوفود .

لكن لقاء هذه الوفود ليس بالأمر السهل ، فكيف كان استقبالهم ، وكيف كان الحديث معهم ؟ وكيف كانت نظرة الرسول ﷺ فيهم ؟

يكفى أن نقول هنا : لقد كان لكل وفد قصة وحوار خاص مع رسول الله ﷺ ، وكان يصرف أمورهم فى حكمة ويختار منهم من يصلح لقيادة قبائلهم والقيام بالدعوة فيهم ، ويطول بنا الحديث لو تناولنا ذلك بالتفصيل .

---

(١) ابن كثير ، السيرة النبوية جـ ٤ ص ٥٣ وما بعدها ـ أبو زهرة ، خاتم النبيين جـ ٣ ص ١٢٧ وما بعدها .

ونركز فى أمر الوفود على النقطة الهامة التى كشفنا عنها فى سياسة الرسول ﷺ حول القارة الأم ، فانه ﷺ لم يترك هـذه الوفود التى جاءت تبايعه وتعلن ولاءها له ودخولها فى الإسلام ، لم يتركها دون أن يربط قبائلها وممالكها بالإسلام ربطاً سياسياً وثقافيا وماليا وتشريعيا فبعث معاذ بن جبل إلى اليمن للقضاء والتشريع ، وبعث عمرو بن حزم للتفقيه فى الدين إلى بنى الحارث ابن كعب بنجران ، وبعث أمراءه وعماله للحكم وتنظيم بيوت المال وجمع الزكاة إلى كل ما أوطأ الإسلام من بلدان ، فبعث المهاجر بن أبى أمية بن المغيرة إلى صنعاء ، وبعث زياد بن لبيد أخا بنى بياضة الأنصارى إلى حضرموت وعلى صدقاتها ، وبعث عدى بن حاتم على طىء وصدقاتها وعلى بنى أسد ، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة ، وبعث الزبرقان بن بدر على ناحية من بنى سعد ، وبعث قيس بن عاصم على ناحية أخرى من بنى سعد ، وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين ، وبعث على بن أبى طالب إلى أهل نجران[1] .

والرباط السياسى لإيجاد نوع من الوحدة يقف فى وجه التيارات التى قد تهب على الجزيرة من الكتل القوية المحيطة بها ، وهذه الوحدة ستكون قوة أو كتلة أخرى قد تتغلب على الكتل التى قد تناوئها ، وهى كتل حمقاء يجرها الحق إلى أن تقع فى صراع معها .

أما الرباط الإقتصادى فلإيجاد التوازن العادل بين الأغنياء والفقراء من هذه القبائل والممالك حتى لا يجد قوم سبيلا إلى الظلم وآخرون سبيلا إلى الثورة على هذا الظلم .

وبهذه السياسة البالغة في الدقة والحكمة على النطاق الدولى استطاع الإسلام ، منهج الحق والخير ، طريقه إلى ربوع البلاد وقلوب العباد فى قوة لا تغلب وإغراء لا يقاوم .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٣٦ وما بعدها .

إلا أننا نرى قبل أن نختم الحديث هنا أن نعرض على هـذه الوحدة التى قامت الأشكال الدستورية للدول الموحدة أو الاتحادية ، هل تعتبر هذه الوحدة اتحاداً شخصياً قام من أجل شخصية الرسول ﷺ ، أو اتحاديا تعاقديا لأنه قام بناء على بيعة بالتزام مبادىء معينة ، أو اتحاداً فعلياً نشأ عنه دولة جديدة بكل مقوماتها الدولية على حين تفقد الدول التى اتحدت معها هذه المقومات ، أو هي وحدة كاملة أصبحت بها الممالك والإمارات جزءاً لا يتجزأ من دولة الإسلام الجديدة كمثل الأعضاء فى الجسم الواحد ؟

فى الواقع قد اختلفت أشكال الاتحادات باختلاف الظروف التى نشأ فيها ؛ ولا نستطيع أن تقيس اتحاداً على اتحاد أو نقارنه به ، لأن كل اتحاد له ظروفه الخاصة التى دعت إليه ، والوحدة التى تمت هنا إنما هي وحدة حقيقية دان بها الجميع للمنهج والحاكم ، وتكونت نتيجة لذلك نواة الامبراطورية الإسلامية أو الامبراطورية الأولى للإسلام ، أو كما اخترنا عنواناً لهـا « القارة الإسلامية الأم » .

الخـــاتمة

عرفنا كيف وضع الرسول ﷺ المبادىء المثالية بسياسته الحكيمة فى كل مجال من المجالات وعلى كل مستوى من المستويات .

ويعرف الجميع أن القرآن الكريم قد تم نزوله فى أواخر أيام رسول الله ﷺ « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ، « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » .

ويحفظ كل مسلم هذا الحديث كأصل فى المنهج والتطبيق: « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله وسنتى » .

فلماذا إذاً خطبة الوداع التى ألقاها الرسول ﷺ على الجميع قبل لقاء ربه بقليل ؟ .

أهي خطبة كخطبه التى يلقيها كل يوم جمعة ينبه الناس فيها إلى أمور هامة فى الدين ؟ .

أهى دستور يركز فيه الرسول صلى الله عليه وسلم على نقاط لها اعتبارها الخاص حتى يتنبه إليها المسلمون عندما يفكرون فى وضع دساتير مستوحاة من كتاب الله ؟ .

أهى إعذار إلى الله وقد أحس الرسول صلى الله عليه وسلم بدنو أجله ليشهد الناس أمام الله أنه بلغ رسالته ؟.

أهي شعيرة تسير سنة على مدى الأجيال إلى أن تقوم الساعة يشهد فيها الحكام الناس على أنفسهم أمام الله أنهم قاموا بواجبهم خـير قيام ولم يقصروا فيه ؟

أهي تحذير من المشكلات التى ستقع فى المستقبل تستحق التنويه عنها فى هذا الاجتماع العام ؟ .

أهي تنبيه إلى الأخطار العالمية التى ستؤرق الإنسانية وتقض مضجعها ؟

أهي إعلان عن مبادىء تكريم الإنسان والحفاظ على حرمته فى كلمات موجزة ؟

قد يكون كل هذا قد خطر فى ذهن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وقف على صخرات من جبل الرحمة فى عرفات ، وكان قد أرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم ، يخطب فيهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه ويقول : أيها الناس اتبعوا قولى ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث ، فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد ، أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر[1] الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على

(١) لأن قبيلة ربيعة تحرم رمضان وتسميه رجبا .

نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهم ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت،وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمرا بينا: كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت[1] ؟ ،وعند تحليل الموضوعات التي ركز الرسول ﷺ عليها في خطبة الوداع ، نجد المشكلات الآتية :

١ ـ الدماء والاعتداء عليها وعدم الاعتبار لحرمتها .

٢ ـ الأموال وأكلها بالباطل ولا سيما بالربا وجحد الودائع .

٣ ـ النساء والاعتراف بحقوقهن والحفاظ عليهن .

وما المشكلات التي يعاني منها العالم اليوم إلا المشكلات التي تتعلق بسفك الدماء هنا وهناك دون اعتبار لحرمة الإنسان وتقدير لحقوقه وكرامته ، وكذلك المشكلات التي تتعلق بالأموال وعدم التفكير الجاد فيما سيصيب الاقتصاد العالمي من كوارث وهزات عنيفة بسبب الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، ثم مشكلة المرأة ووضعها في المجتمعات وتحديد حقوقها وواجباتها وصونها أن تقع في مهاوي الرذيلة . ولم ينس الرسول ﷺ وهو يركز على هذه الموضوعات أن يصف العلاج الحاسم لهذه المشكلات وقد كان هذا العلاج الحاسم ـ وهذه هي الحكمة النبوية العالية ـ علاجا ذا درجات في السرعة والدوام مهما اختلفت الظروف والبيئات ومهما تغيرت العصور والأيام .

---

(١) المرجع السابق .

فالعلاج السريع لموضوع الدماء هو وضع الديات والعفو عما حدث في الماضي من دماء تدفع إلى الثأر والانتقام . والعلاج الدائم هو :

١ — مراقبة مداخل الشيطان إلى النفوس ، فإنه مع يأسه من أن يعود المسلمون إلى الشرك ، على أمل كبير في أن يزحزهم عن الحق بوسائل كثيرة يجيد استعمالها ولا يتنبهون إليها لاستهانتهم بها .

٢ — تنظيم الوقت ومراعاة الزمن الذي وضعه الله للبشرية ، ولفت الرسول صلى الله عليه وسلم أنظار الناس إليه ، وهو أن السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، يحرم فيها القتال وتتوقف فيها المعارك إن كانت ، فيراجع الناس أنفسهم بعد أن يكون الشيطان قد أوقع بهم وجال بالشر بينهم .

والعلاج السريع لموضوع الأموال هو وضع الربا كله والرجوع إلى رءوس الأموال دون زيادة ما كثيرة أو قليلة .

والعلاج الدائم هو : مراقبة مداخل الشيطان ، فإنه لا ييأس من توجيه الناس بأصابع الفتنة والإغراء ولا سيما في مجال المال والاقتصاد .

والعلاج السريع لموضوع النساء هو تحديد الحقوق والواجبات ومعرفة ما للرجال على النساء وما للنساء على الرجال .

والعلاج الدائم هو : أن يلزم الرجل نفسه بمراعاة الحكمة والصبر مع زوجه ، وأن يستوصي بها خيراً ، فإن الله قد أحلها له وائتمنه عليها ورد بها وحشته وآنس بها عزلته .

ثم يأتي في نهاية هذه الخطبة النبوية الأخيرة الدعوة العامة إلى التمسك بالدستور الدائم وهو القرآن ، والمذكرة التفسيرية له وهي السنة ، فإن الاعتصام بهما يجنب الناس من الضلال ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمآل .

* * *

وحبذا لو انتهج رؤساء الدول هذا النهج النبوى الكريم فأرشدوا الناس في أواخر أيام حكمهم أو عندما يحسون بدنو آجالهم ، إلي المشكلات الخطيرة التي يمكن أن تثور في وجوه شعوبهم ووضعوا لهم الحلول الناجعة التى وفقوا إليها بإيمانهم وتجاربهم .

وحبذا لو كانت نظرة هؤلاء الحكام إلى هذه المشكلات نظرة عميقة مستوعبة لا تقف عند حدود الزمن أو الوطن .

لقد اجتازت نظرة الرسول ﷺ فى الخطبة حدود الوطن واخترقت حاجز الزمن ، ولذلك كان نداؤه إلى الناس عامة ، وكرر هذا النداء مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بوقت معين ، فقد بعث للناس كافة وأرسل رحمة للعالمين وكان خاتم النبيين .

نص الدستور

الذى وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم

عند إقامة الدولة

بسم الله الرحمن الرحيم ، هـذا كتاب من محمد صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم (وضعهم ونظامهم) يعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (دياتهم) الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا (مثقلا بالدين) بينهم أن يعطوه فى فداء أو عقل .

وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (جريمة عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض (يعين بعضهم بعضاً) بما نال دماءهم فى سبيل الله .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

وإنه من اعتبط (قتل ظلما) قتلا عن بينة فإنه قود (قصاص) به إلا أن يرضى ولى المقتول .

وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

— وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر إن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

— وإنكم مهما اختلفتم فى شىء فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

— وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

— وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فانه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

— وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

— وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن مولى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود (خاصتهم وأهل بيتهم) كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنه لا ينحجز على ثأر جرح (لا يكون الجرح سبباً للحجز أخذاً للثأر) .

— وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا .

— وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

— وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة .

— وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

— وانه لم يأثم امرؤ بحليفه .

— وان النصر للمظلوم .

— وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

— وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

— وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

— وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

— وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— وإن الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

— وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

— وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ،

— وإذا دَعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه .

— وإنهم اذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

— وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

ـــ وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه .

ـــ وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

ـــ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

ـــ وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم .

ـــ وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤٧ وما بعدها .

مراجع الكتاب بالعربية

ابن الأثير : تاريخ
ابن الجوزى : تفسير
ابن خلدون : تاريخ المبتدأ والخبر
ابن سعد : الطبقات الكبرى
ابن قدامة : المغنى
ابن كثير : تفسير
ابن هشام : السيرة النبوية
أبو الأعلى المودودى : نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور
أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى
أبو القاسم السهيلي : الروض الأنف
أبو الوليد الأزرقي : أخبار مكة
د . إسرائيل ولنفسون:تاريخ اليهود
البخارى : صحيح
بريستد : فجر الضمير
السرخسى : المبسوط .
د . سيد صبرى : النظم الدستورية
الطبرى : تفسير
د . طه حسين : على هامش السيرة
أ . ل. فشر : تاريخ أوربا الحديث
الفيروز أبادى : القاموس المحيط

القرطبي : تفسير
د . عبد الفتاح حسن : مبادىء النظام الدستورى
عماد الدين يحيي العامرى : بهجة المحافل
لويس دوللو : التاريخ الديبلوماسى
المجمع اللغوى : المعجم الوسيط
محمد أبو زهرة : خاتم النبيين
د . محمد خليل : النظم السياسية
د . محمد الطيب النجار : الدولة الأموية فى الشرق
محمد عزت دروزة : القرآن والمبشرون
مسلم : صحيح
منتجومرى وات : محمد في المدينة
نور الدين السمهودى : وفاء الوفاء
ول ديورانت : قصة الحضارة
ياقوت الحموى : معجم البلدان

مراجع باللغة الأجنبية

H· Batiffol Droit international Privé .

A. Hamab Lc testament obligatoire en droit musulman, étude comparativc .

Lafarriere Manuel de droit constitutionnel .

Larousse Dictionnaire .

Monier Manuel élémentaire de droit romain.

Montesquieu De l' esqrit des lois .

J . Østiruf Catalogue des monnaies arabes et turques

Prélot Précis de droit constitutionnel .

Rousseau Le contrat social .

R. Savatier Le droit comptable au service de l'homme

Vedel Manuel élémentaire de droit constitutionnel

Les constitutions de France .

Les constitutions de France .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الموضوع	الصفحة

